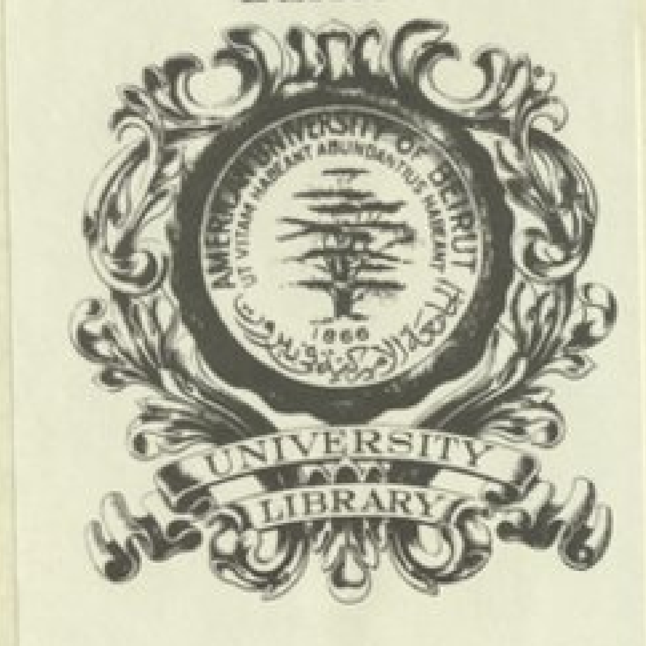
الجنرال كيللر

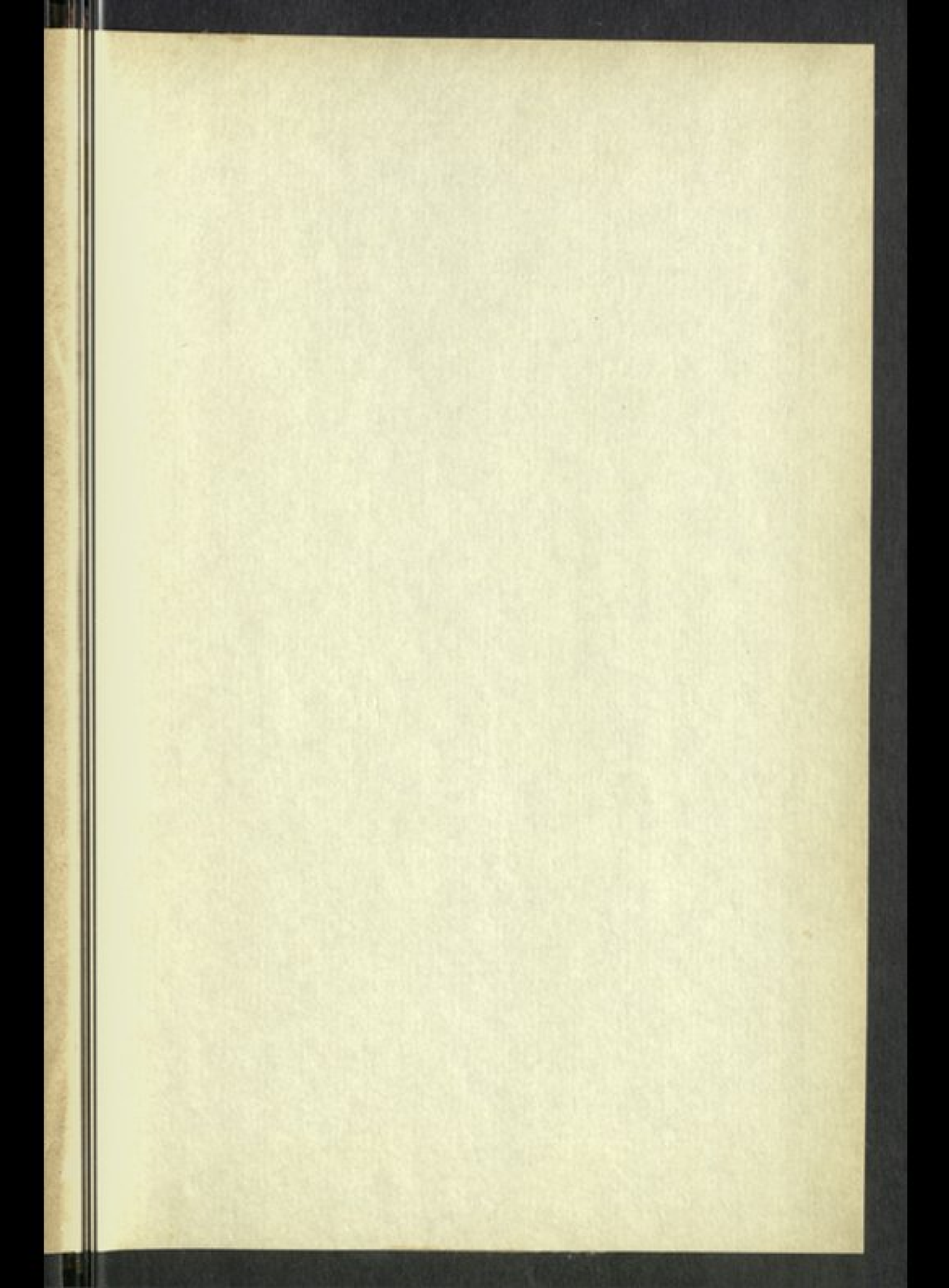
القضية العربية

في نظر الغرب

حوادث تاريخية هامة تكشف
الستار عن المؤامرات والألاعيب الدولية
في سبيل اكتساب البلاد العربية

منشورات دار مكتبة الحياة


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY



الجنرال كيللر

القضية العربية

في نظر الغرب

منشورات
دار مكتبة الحياة

تصدير

لم يكن هنالك ، ما يسمى بالقضية العربية ، قبل ان تتألف الجامعة العربية ، وان كانت بعض مساع ، قامت منذ الحرب العالمية الاولى ، لتقارب بعض الدول العربية .

ذلك اننا ، اذا استثنينا المستطيل المعروف بشبه الجزيرة العربية ، والذي تحدّه صحراء سوريا شمالاً ، والمحيط الهندي جنوباً ، وخليج العجم شرقاً ، والبحر الاحمر غرباً ، لم يعد هنالك وحدة قومية - بمعناها العلمي - بين دول الجامعة العربية . اذ ليس بينها ثمة وحدة في العنصر ، او في التطور ، او في الاقتصاد او في التقاليد ، او في الحدود الطبيعية ، لتشكل دول الجامعة ، امة واحدة بمعناها العلمي الكامل .

على أن وحدة اللغة ، ووحدة الدين ، زد على ذلك ، **وحدة المصيبة في الاستعمار** ، قد تضافرت جميعها ، فاضطرت الدول العربية ، ان تشكل شبه تآلف بينها ، اسفر عن انبثاق الجامعة العربية ، لتقف في وجه الاستعمار الغربي ، فتحافظ - ما امكن -

على كيانها . وقديماً قيل : في الاتحاد القوة .

ان ما حدا بي الى تعريب هذا الكتاب ، هو الصراحة المطلقة ، التي يظهرها المؤلف – وهو رجل عسكري لا يعرف المراوغة – حول مصالح دول الغرب في بلادنا ، وطمعها في بترولنا وخيراتنا .

فاذا فتشنا عن سبب اهتمام هذه الدول في بلادنا ، وجدنا انه النفط – مستعبد الشعوب – ، الذي تفوح رائحته في انوفهم ، فتجعلهم ينجذبون نحو هذه البقاع الغنية بهذه المادة الحيوية ، انجذاب الضواري في طلب الفريسة .

ولكي أتجنب المثل الايطالي القائل : « ان المترجم خائن » ، جربت – ما تيسر لي – ان اعرب هذا الكتاب ، حرفياً . ولكي لا نقع في بعض الغموض ، الذي قد يلازم بعض فقرات – وقد اعترف بها المؤلف ذاته – شرحت الغموض ما امكن .

اتمنى ان اكون وفقت في عملي هـذا ، لأقدم خدمة الى قراء العربية .

زحله ٢٤ ايلول ١٩٥٤ ميشال حجار

المقدمة

اذا اعيدت القضية العربية الى مبادئها الاساسية ، وجدنا ان العنصر الاول للقضية ، هو – قبل كل شيء – تلك الجهود التي بذلتها هذه البلاد ، للحصول على حريتها واستقلالها . فكان لتأثر العرب بموجة الوطنية ، التي عمت العالم ، بعد الحربين العالميتين الاخيرتين ، ان عرفوا كيف يستغلون الاحداث الدولية ، سواء اخاضوا غمار هاتين الحربين ، الى جانب المنتصرين ، ورأو ان لهم على اعناق المنتصرين فضلاً في نصرهم ، او لأنهم – على الاقل – كانوا من الاسباب التي ابعدت شبح الهزيمة عن هؤلاء .

فما استقلوا ، او ما كاد استقلالهم ان يكون ناجزاً ، حتى رأوا ضرورة جمع شملهم ، وأن وحدتهم فقط ، هي العامل الاساسي لقوتهم . وراحوا ينبشون – في تقاليدهم التاريخية ، في تقاربهم العنصري ، والديني ، ثم في وحدة اللغة والثقافة – الصلات التي بامكانها ان تجمعهم . ومن هذه التجربة ، كانت الفكرة الموجزة « للجامعة العربية » ، وهي العنصر الثاني الذي يشكل

القضية العربية .

واخيراً ، فان البلاد العربية ، بموقعها الجغرافي في قلب العالم الاسلامي ، وعلى مفترق الثلاث قارات ، ووقوعها على طريق الهند والشرق الاقصى ، وغنى اراضيها بالنفط ، هذه الاسباب جميعها ، لا يمكنها ان تجعل الدول العظمى مكتوفة الايدي ، وهي مضطرة ان تتدخل لتحافظ على مصالحها . وهذا هو العنصر الثالث للقضية العربية .

اذن ، فلاجل معرفة القضية العربية ، لا بـــد من دراسة خصائص كل من العناصر الثلاث المذكورة في هذه المقدمة ، وتأثير كل منها على الآخر .

الجنرال بيير كلر

الفصل الاول

عناصر الوحدة العربية

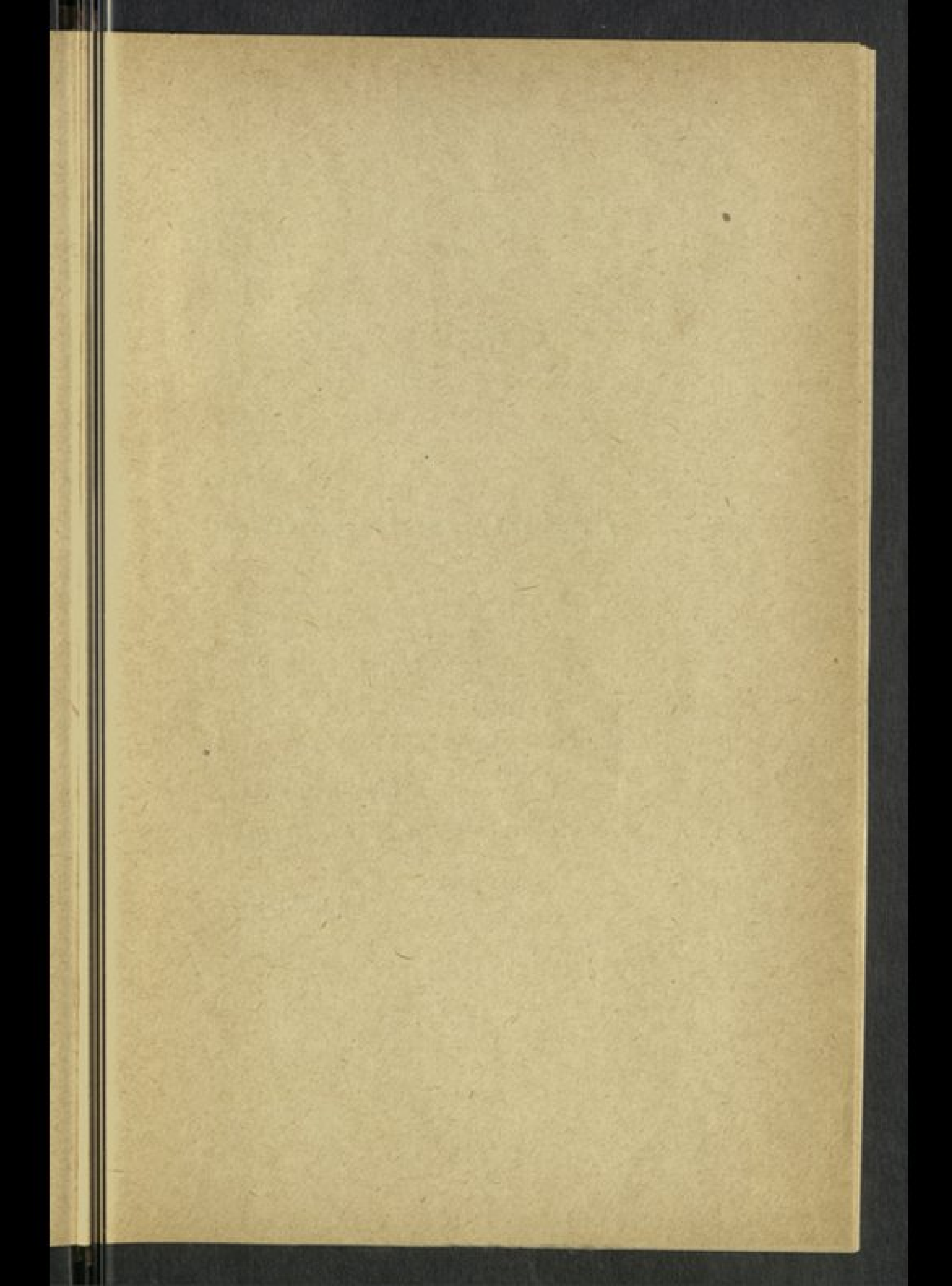
ا) الحدود والشكل

ب) العنصر

ج) العلاقات التاريخية

د) الاسلام

ه) المدنية العربية



الحدود والشكل

اذا استثنينا شبه جزيرة الاندلس ، والجزائر البريطانيـة ، واليابان واوستراليا ، لا نجـد سوى شبه الجزيرة العربية ، هذا المستطيل العظيم ، الرابض بين الهند وافريقيا ، كدائرة يمكنها ان تؤلف دولة كبرى متحدة .

وقد يخطر بالبال ، احياناً ، ان تقسم هذه البلاد الى قسمين مختلفين . فاذا كانت شبه الجزيرة – من جهة – منفصلة تمـاماً عن عن افريقيا وآسيا ، فانها – من جهة ثانية – متصلة باسيا الوسطى، اتصالاً هاماً وغير مضبوط الحدود . وهذا القسم كان ولمّا يزل ، مفترق الطرق للشعوب والمدنيـات ، لانه كان الممر الرئيسي للغزوات التي تعاقبت عليها من اربعة اقطار العالم ، وقد كانت – ولما تزل – منطقة نزاع ازلي جعل حدود العالم العربي ، في وضع غير ثابت .

اما شبه الجزيرة ذاتها ، فهي تؤلف نواة ، منعزلة عن السـاحل بسلسلة جبلية شبه كاملة ، تحيطها منطقة من البطاح الغنية نوعاً ، ومن ميزات هذه المنطقة الجبلية والساحلية ، انها اقرب بعلاقاتها ، مع الخارج ، منها مع قلب البلاد .

وهنالك فرق واضح ، بين المناطق المروية الكثيفة السكان ، وهذه القيافي الصحراوية الشاسعة التي تفصل بينها ، فالمناطق الغنية ، نمت وكبرت جماعات مستقلة ، وتمخضت عن حضارة ومدنية ، مثل بغداد ودمشق ، اللتين اصبحتا عاصمتين سياسيتين ، وادارتين .

وبالاجمال ، فقد ظلت الثروات الطبيعية ، معتدلة ، حتى اكتشفت فيها معادن النفط ، الذي خلق لها ثروة عظمى ؛ لكنها ثروة مستخرجة بالعنف ، وغير موزعة توزيعاً عادلاً .

واخيراً ، فان شبه الجزيرة العربية ، بموقعها بين الشرق والغرب ، على مفترق الطرق بين القارات الثلاثة ، تشكل نقطة ستراتيجية هامة . فهي البلاد الازلية للطريق (١) ؛ ولا سيما بعد ان حلت قوافل السيارات السريعة ، محل قوافل المشاة البطيئة . كما وان طريقاً بحرية جديدة ، قد اضيفت الى الطرق البرية ، بعد شق قناة السويس ، فضلاً عن ان الطرق الجوية – الاكثر سرعة الى الشرق الاقصى – تلاقي في محطاتها ، ما يعوزها اثناء سفرها . زد على هذه كلها ، خطوط انابيب النفط ، الذي اكتشف حديثاً ، والتي تقل الذهب الاسود ، الى شواطىء البحر الابيض المتوسط .

العنصر

ينتسب العنصر العربي ، الى الجنس السامي القوقازي الذي اصبحت منطقتة شبه الجزيرة العربية . فقد تسرب – منذ بضع

(١) طريق الهند (المعرب)

آلاف سنة قبل المسيح الى بلاد ما بين النهرين Mésopotamie ، وجنوبي آسيا الصغرى Anatolie، شعوب من الحثيين ، والحوريين والميتانيين الخ... وفي الالف الثالث قبل الميلاد ، بدأت شعوب اخرى من الاريين، القاطنين بين الهند واوروبا ، تزحف على موجات متتابعة ، واختلطت هذه العناصر فيما بينها . وكانت اكبر موجة هاجرت الى هذه البلاد ، هي سبط ابرهيم الخليل ، في نحو الالف الثاني ق.م. لقد كانت غزوات وفتوحات ، حركت هذا الخليط من السكان بين بعضه ، فقد وقعت منا وشات عديدة ، بين مصر وجنوبي بلاد ما بين النهرين ؛ فان سرجون ملك الاكاديين Akkad غطس سلاحه في مياه البحر المتوسط ، ليرمز الى اتساع ملكه وجبروته - اواخر الالف الثاني ق . م - وقد حدث مثل هذا ، مراراً عبر الاجيال .

وبعد بضعة قرون ، تألفت الامبراطورية الحثية الكبرى ، التي امتدت من اسيا الصغرى وسوريا ، حتى خليج العجم . لكن هذه الامبراطورية ، ذابت تحت ضربات المصريين في معركة قادش في سوريا (١٢٩٤ ق. م.) . وفي اواخر الالف الاول ق. م. وقعت الغزوات المعروفه بغزوات شعوب البحر الابيض المتوسط ، وعادت الامبراطورية الحثية الى النهوض . ثم تألفت مملكتا اسرائيل ويهوذا ، وازدهرت المملكة الاشورية ، التي لم تلبث ان انهارت ، في القرن السادس ق. م. تحت ضربات الماديين . ثم نرى البابليين ، الذين اجتاحوا البلاد الواقعة بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط ، وفتح اورشليم وتخريبها سنة ٥٨٦ ،

واخضاع بابل ، ونهاية مملكة يهوذا . وبعد البابليين جاء الفرس ، وبعد هؤلاء الاسكندر ، ثم الرومان ، ثم بيزنطية ، وبعدها عاد الفرس الى الظهور من جديد .

في هذه السلسلة من الغزوات ، لم يظهر للفتح العربي اي اثر ، الا عرضياً بشكل غزوات ومناورات . وفي مدة مئتي سنة ، بين فتح انطاكية ١٠٩٨ م ، والجلاء عن جزيرة ارواد ١٣٠٣ م ، اثناء الحروب الصليبية ، احتل الفرنج قسماً كبيراً من سوريا وفلسطين . نخرج مما تقدم الى انّ هذه الشعوب ، قد تلقت الصدمات العنيفة ، بصبر وثبات . لكن هذه الغزوات والفتوحات ، لم تصل قط الى قلب الجزيرة العربية ، حيث نجد هنالك ، وهنالك فقط ، ان الحياة لا تزال كما كانت في الاجيال السالفة . العربي الصرف ، بدوياً بعاداته وصفاته المحافظة ، المجبولة على الانفة والصلابة والدهاء ؛ بعكس الحضري — قاطن المدن — الذي يعمل في الصناعة او التجارة . وقد كتب ابن خلدون ، في القرن الرابع عشر يقول : « ان الرجال ، الذين تكونت صفاتهم تحت تأثير الحياة المدنية المحترفة ، هي اقبح صفات » . لكننا نجد بين هذا الازدواج ، تناقضاً غريباً ، لا يمكن اهماله . وهو ، بالتالي ، يفسّر لنا الخصومة التي تقف — في ايامنا هذه — بين ابن السعود والدول العربية الاخرى .

العلاقات التاريخية

عرف العرب كيف يستفيدون ، بفتوحاتهم السريعة ، من الظروف المؤاتية والشاذة، بشكل يحق فيه اليوم للشعوب العربية ان تفتخر بأسلافها . فان الامبراطوريتين ، البيزنطية والفارسية ؛ ضعفتا بحروبها المتواصلة ، وكانت افريقيا الشمالية مضطربة من الفوضى المنتشرة في ارجائها ، وكانت اسبانيا قد تهدمت ، تحت هجمات الفاندال Vandales والقبائل الجرمانية Visigoths ، وخرجت من جراء الثورات والمذابح، التي وقعت في عهد ملوكها الغوطيين . وعلى سبيل المثال ، نذكر المراحل الرئيسية . كان دخول العرب الى دمشق ، بعد انهزام البيزنطيين ، في معركة اليرموك (٣٠ آب ٦٣٥ م) ومغادرتهم، نهائياً، سوريا . وفتحت بلاد ما بين النهرين والفرس في أقل من عامين . واستلمت القدس سنة ٦٣٨ م ، وفي العام نفسه ، دخلوا مصر ، دون ان تبدي اية مقاومة

وكانت غزوات العرب للمغرب عام ٦٤١ ، بعد انكفاءات مصحوبة بثروات لا بأس بها ، واحياناً بهزائم قاسية ، مثل هزيمة زهير، الذي اضطر ان يتراجع حتى القيروان. لكنهم ظلوا يعيدون الكرّة ، حتى اصبحوا اسياد افريقيا الشمالية، في بداية القرن الثامن للميلاد . ثم احتلوا اسبانيا ، وغزوا فرنسا . غير ان شارل مارتل Charles Martel ، قد اوقف ، في بواتية ، Poitiers حملاتهم

لغزو اوروبا ، بعد ان امتدت امبراطوريتهم ، في اقل من قرن من الهند حتى المحيط الاطلسي .

ورغم هذه الظواهر ، فلم يكن ، لهذه الامبراطورية ، صفة حقيقية للملكة المتحدة ، بل كانت - على الاغلب - اتحاداً من الدول الخاضعة ، نظرياً ، للخليفة . وكانت كل دولة مستقلة ، تقريباً ، ولكل منها ايضاً ميزانها وعادتها الخاصة . فقد كانت فارسية في بغداد ، وسورية في دمشق ، ومصرية في القاهرة ، ومغربية في القيروان وفاس ، ومغربية - اسبانية في قرطبة . والسبب في هذا التباين، هو أن العرب، اذا كانوا قدموا لجيوشهم قادة منهم ، فان الجيوش ظلت مؤلفة من اكثرية تنتمي الى الشعوب التي فتحت قبلاً . كما وان سعة البلاد المحتلة ، العريقة بحضارتها ، جعلت العرب يقيمون عليها حاكما عسكرياً وحرساً وكمية من الموظفين . وهكذا ظل الجهاز المحلي للدولة المحتلة ، كما كان قبلاً . إذن ، فليس من المستغرب ، ان يقوم تناقض دائم في البلاد العربية، يضاف اليه ، اختلافات عنصرية، لها قيمتها في مابعد وكان اسلوب الحكم ، قبل الفتح ، خاضعاً لدكتاتورية عسكرية صعبة المراس جعلتها تحفظ النظام. غير ان بناء الدولة الاصطناعي المؤلف من عناصر متفرقة ومتباينة ، لا بد له - إن عاجلا او آجلاً - ان يعرض الامبراطورية العربية ، الى التفكك والتجزئة. ففي اسبانيا ،ظل الحكم المغربي-الاسباني قائماً حتى القرن الخامس عشر . وفي افريقيا الشمالية ظل قائماً ، حتى عصرنا ، تحت سلطة الباب العالي، ونفوذ الدول الاوروبية. اما في قلب الامبراطورية

في سوريا ومصر والعجم ، منذ طرد العرب ، منذ القرن العاشر الميلادي . ذلك ان بيزنطية ، اغتنمت فرصة التناحر بين الخليفتين وثارت لنفسها . ثم قام الاتراك السلاجقة ، من قلب صحراء الكرغيز ، وتغلبوا على فارس وسوريا وفلسطين ، ودشنوا بذلك سلسلة فتوحات ، لم تتوقف الا في اوائل القرن الخامس عشر ، بالعثمانيين .

وسوف لن تحقق العلاقات التاريخية ، نهضة امبراطورية عربية جديدة . غير ان الفتح العربي ، الذي ترك رباطاً في الدين والثقافة واللغة ، وارثاً معنوياً ، كفيل بان يخلق اتحاداً بين بعض الدول العربية .

الاسلام

ليس الاسلام مجموعة من العقائد الدينية فحسب ، بل هو نظام مدني خاضع لقوانين دقيقة ، انزلت في القرآن ، ويدعمها الفقه . فالخليفة يمثل النبي محمداً على الارض ، وهو – في الوقت ذاته – رئيس الجامعة الاسلامية ، ويحق له وحده ، ان يعلن الجهاد ، اي الحرب المقدسة .

يجب ان نفرق دائماً ، بين مفهومنا للوحدة العربية ، التي تعني وحدة الشعوب العربية ، وبين الوحدة الاسلامية ، التي تعني وحدة الذين يدينون بالاسلام ؛ لان الفتح العربي ، هو الذي نشر الاسلام . واذا كان العرب باكثريتهم ، يعتنقون الاسلام ، فليس

معنى هذا ان جميع المسلمين ، هم عرب .

ان دراسة الدين الاسلامي تخرج عن نطاق بحثنا هـذا (١) . ولكن ، قد يروق لنا ان نمتحن المساعي التي تبذل من اجل وحدة البلاد العربية. فاذا لم يراع نصارى سوريا ولبنان ، ويهود فلسطين ، فمن الصعب ان تستعمل لفظة « الوحدة الدينية العربية » بكل ما في الوحدة من معنى . ذلك ان العرب ، في صدر الاسلام ، انقسموا الى بدع عديدة ، كانت — على العموم — تتنـاحر وتتشاحن . ولم تكن كلمتهم تتوحد ، الا عند اضطرارهم لمجابهة اعدائهم الكفرة ؛ حتى اذا ما عادوا الى انفسهم ، عادوا الى الضغائن والفتن الدموية ، كما حدث بعد موت النبي .

لقد خالت «شيعة علي»، انها ظلمت بتسميه الخليفة ابي بكر — والد زوجة الرسول المفضلة — واخذت تناصب العداء ، للحزب الذي سمى نفسه « بالسنة » . وما كاد علي بن ابي طالب ، ان يقبل بالتحكم ، الذي ابعده عن الخلافة ؛ حتى انبرت فرقة اخرى ، هي الخوارج ، واخذ « الشيعيون » ينقسمون الى احزاب ، ينتسب كل منها بفرع الى سلالة علي . وفي كل مرة ، كان المنشقون يدعمون نظرياتهم بآيات قرآنية ، تؤيد دعواتهم ، حتى اصبحت الشيعة تنقسم الى متاولة ، وزيديين ، واسماعيليين. الخ . . وكان من بين هذه الفرق ، فرقة الدروز ، التي اسسها احد الخلفاء الفاطميين ، ثم جن ، في ما بعد . وقد رتب قوانينها احد الاتباع

(١) يمكن الاطلاع في مجموعة هذه السلسلة على كتاب « الاسلام » تأليف دومينيك سورديل Dominique Sourdel

الطموحين «درزي» ، واعطيت اسمه (١) . وكان ايضا النصيريون والعلويون ، الذين لا يمتون ، تقريباً ، بصلة الى الاسلام

وقد تكونت جميع هذه الفرق ، في مناطق خاصة ، يصعب تحديدها ، وحيث لاقت دعوتها تأييداً قوياً من السكان ، وتحولت عقائدها ، مع الزمن ، الى مذاهب دينية . فكانت بلاد فارس ملاذاً للشيعيين ، وبلاد العلويين للنصيريين ، وافريقيا الشمالية للخوارج ، وقلب الجزيرة للوهابيين . غير ان شخصية زعيم الوهابيين ، ابن السعود ، ستضطرنا ان نتوسع في الكلام عنها .

تأسست الوهابية ، في القرن الثاني عشر ، على يد محمد بن عبد الوهاب ، واخذت اسمه . ودعوة ابن عبد الوهاب هذه ، تتلخص بأنه يريد ثورة جديدة في الاسلام ، هدفها السير على تعاليم وعقيدة النبي الاساسية . فحظر التبغ والقهوة والميسر والخمرة وارتداء الاثواب الثمينة والغناء ، حتى ان الضحك اصبح محذوراً ؛ واوقف عن العلماء العطاء والهدايا ، ومنع الرسوم ، وبناء القبور

---

(١) من المرجح ان الدروز ، هم اصلا ، بقايا الاسرائيليين ، الذين لم يتمكنوا ان يلتحقوا بموسى لدى خروجه من مصر ، وبالتالي لم يكمل لهم دينهم . وخوفاً من الاضطهاد ، اضطروا ان يكتموا نظرياتهم الدينية . وقسموا تعاليمهم الى تسع درجات ، او تسعة اسرار ، لا يعرف السر السابع والثامن والتاسع ، الا الذين أصبحوا من العقال . ومن تعاليمهم ، ان يعبدوا الصدق والخير والكرامة الخ ... وان يخضعوا للحكام ، ويتقاربوا من اكثرية السكان الذين يعايشونهم . ولذا ترى دروز فلسطين يعايشون ، اليوم ، اليهود ، كما يعايش دروز لبنان الموارنة ودروز جبل العرب المسلمين (المترجم)

دينية (١) وهو ، فضلاً عن ذلك ، عدو لدود للاجانب لذلك ، فالوهابية بقوانينها الضيقة وقساوتها ، تشكل حاجزاً قوياً في وجه الوحدة العربية .

واذا لم نأخذ بعين الاعتبار ، الاحزاب الدينية ؛ فان الخلافة ستكون ، ولا شك ، مشكلة يصعب حلها بالنسبة الى الكفاءات المادية والمعنوية ، التي يجب ان يتحلى بها من سيتولى هذا المنصب فقد انبرى سلطان مراكش عام ١٩٤٧ ، والقى خطبة في طنجة ، ادعى فيها بحقه في تولي الخلافة . وهو رئيس دولة اسلامية وغير عربية ، وحظه اقل من ان يذكر في تولي الخلافة . فكيف بنا ، والحالة هذه ، مع فاروق ملك مصر (٢) وابن السعود ملك الحجاز والخلاف قد ذر قرنه بينهما من اجلها . وسوف لن يرضى احدهما ان يتنازل للاخر . ومن هنا يمكننا القول ان قضية احياء الخلافة مشكلة يصعب حلها .

ومهما يكن الامر ، ورغم هذه الاستثناءات ، فلن يكون الدين الاسلامي ، السبب الرئيسي للوحدة العربية ، إلا بمقدار ما يمكنه ان يجمع بين العروبة والاسلام . وهذه القضية — وان كنا سنتحدث عنها — تلاقي اهتماماً بالغاً عند اولي الشأن ممن يعملون لأجلها

(١) تأمر الوهابية بدفن الموتى تحت الارض ، تمشياً مع الحديث النبوي الشريف : « خير القبور الدوارس » (المترجم)

(٢) حينما كتب المؤلف كتابه هذا ، لم يكن فاروق قد اقيل بعد (المترجم)

المدنية العربية

من الصعب ان نتصف في حكمنا على المدنية العربية. فكثيراً ما لا يفرق بعض المؤرخين ، بين ما هو عربي العنصر ، وما هو عربي اللغة ، وما هو مسلم . على انه بالامكان ان نقول : إن العرب كانوا مبسطين Vulgarisateurs وغير مولدين (١) Créateurs

وقد لا يكون مجالنا فسيحاً لنخط لوحة عن الادب العربي . لكننا اذا اردنا ان نحدد اصله ، وجدنا أن العصر الجاهلي Préis lamique ، الذي كان عصراً عربياً صرفاً ، اظهر عبقرية العرب في الشعر . ففي هذا العصر ، ظهر الشعر الهجائي والغنائي ويمثلا الشعر في الجاهلية ، مما امرؤ القيس ، ابن اجد امراء نجد وعنترة الذي اشتهرت سيرته « بقصة عنترة» . ومع القرآن ، ظهر النثر العربي . وسنضطر ان ننتظر بزوغ الفجر العباسي ، لنرى العظمة والعبقرية في الاداب العربية ، فقد تجدد في هذا العصر

---

(١) فات المؤلف ان يعرف ان العرب كانوا في العصور الوسطى أكثر مدنية ، وأكثر ابداعاً من اوروبا . فبينما كان العرب في رقيهم وحكمهم العادل وديمقراطيتهم ، كانت اوروبا تعيش في محاكم التفتيش ، وبينما اعلن الدين الاسلامي اول ثورة اشتراكية عرفها العالم ، كانت اوروبا لاتزال في عهود الرق والاقطاع ولكن الزمن الذي نهضت فيه اوروبا ، كانت فيه الشعوب العربية مستعبدة من قبل الاتراك الذين - لولا القرآن - لقضوا ، حتى على اللغة العربية (المترجم)

اسلوب الشعر العربي ، بعد ان تأثر كثيراً باللون الفارسي ؛ لأن أكثر الشعراء من اصل فارسي ، او من مزيج (عربي - فارسي) فابو نواس ، أحد فحول الشعراء ، من اصل فارسي . وبعد المتنبي (القرن العاشر) وابي العلاء المعري (القرن الحادي عشر) جفت قريحة الشعر العربي .

اما في النثر ، فاننا نجد فن القصص ، قبل كل شي ، واشهرها قصص « الف ليلة وليلة » . وهذه ، رغم انها وضعت بالعربية ، فهي من اصل فارسي . وبعد القصص يأتي تفسير القرآن ، وقطع من الحديث النبوي ، وتراجم حياة Biographies ، كتراجم ابن خلكان ، وتواريخ المسعودي ، ودوائر معارف ابن العمري . وقد ظهر في القرن الرابع عشر ، مؤرخ كبير هو ابن خلدون ، الذي عـــاش ومات في المغرب ؛ وهو المؤرخ الوحيد ، الذي مزج التاريخ بالفلسفة .

ويعود الفضل للعرب في تعريفنا عـلى الفلاسفة اليونان ، حيث وجدوا تآ ليفهم في مكتبة الاسكندرية ، فنقلوها ، وشرحوها ، وعلقوا عليها . وابن رشد ، هو اعظم الناقلين والشارحين لفلسفة اليونان . اما الفلسفة العربية الصرفة ، فهي المرتكزة على القرآن ، والغزالي هو امام هذه الفلسفة ، وقد عاش في بغداد ، لكنه ولد ومات في خراسان

اما في العلوم ، فبامكاننا القول إنهم نقلوا كثيراً دون ان يبدعوا . ففي الرياضيات ، ترجموا اقليدوس ، وارخميدوس . كما

وان الطب العربي ، تعود اسـه الى غاليان Gallien وايبوقراط Hippocrate حتى الحرف العربي من اصل هندي . وليس من الانصاف ان تنسى الخوارزمي (١) الرياضي الذي اعطـانا الجبر ، والفرغاني ، الفلكي الشهير . والادريسي عالم الجغرافيا ، وابن سينا الطبيب والفيلسوف ، وقـد اشتهرت جامعات القاهرة ودمشق وبغداد، التي كانت تحتوي – الى جانب المدارس الفقهية – معاهد تدرس العلوم والطب . واذا لم يكن اساتذة الطب باكثريتهم من العرب ، فان الدروس كانت تعطى بالعربية

واذا انتقلنا الى ناحية الفن ، فاننا نصل الى نتيجة مماثلة . ذلك أن القرآن ، بمنعه رسم الوجوه البشرية ، والحيوانات والنبات ؛ لم يبق امام العرب ، سوى الاشكال الهندسية ، يستعملونها للزخرفة والتزيين . ولهم على ذلك قوة في الصبر والجلد ، ليس بالامكان انكارها (٢) لكن هذه الهندسة المعمارية ،ظلت متأثرة بالمحيط فكان الفن بيزنطياً عند الامويين ، بابلياً في عهد العباسيين ، وتونسيـاً ايرانياً ، في عهد الفاطميين . وما كان الفن العربي ان يثبت وجوده في عهد الايوبيين ، حتى جاء الفتح التركي ، يقضي على نهضته

وهكذا ظهرت المدنية العربية ، وتألقت ، دون ان يشعر بها احد ؛ واصبحت بمصاف الحضارات القديمة ، التي ظلت – رغم

---

(١) ان اللوغاريتم هو من صنع الخوارزمي وقد اخذ اسمه بعد التحريف

(٢) يقصد المؤلف ، جلد العرب على صنع الفسيفساء ، مثلاً

الحكم الاجنبي – تعلو وتزدهر . وتحت تأثير الدين ، والتقاليد ، واللغة ، تحولت هذه المدنيات ، شيئاً فشيئاً – دون ان تذوب وتضمحل – الى مدنية جديدة ، هي المدنية العربية وبامكان البلاد العربية اليوم ، ان تجددها ، وتستعيدها [1]

---

(١) يريد المؤلف ان يقول : ان المدنية العربية هي مزيج من الحضارات القديمة : البابلية ، البيزنطية ، الفارسية ، الهندية، التونسية الخ . وقد تفاعلت جميع هذه الحضارات وتمخضت عن حضارة جديدة سميت المدنية العربية. (المترجم)

الفصل الثاني

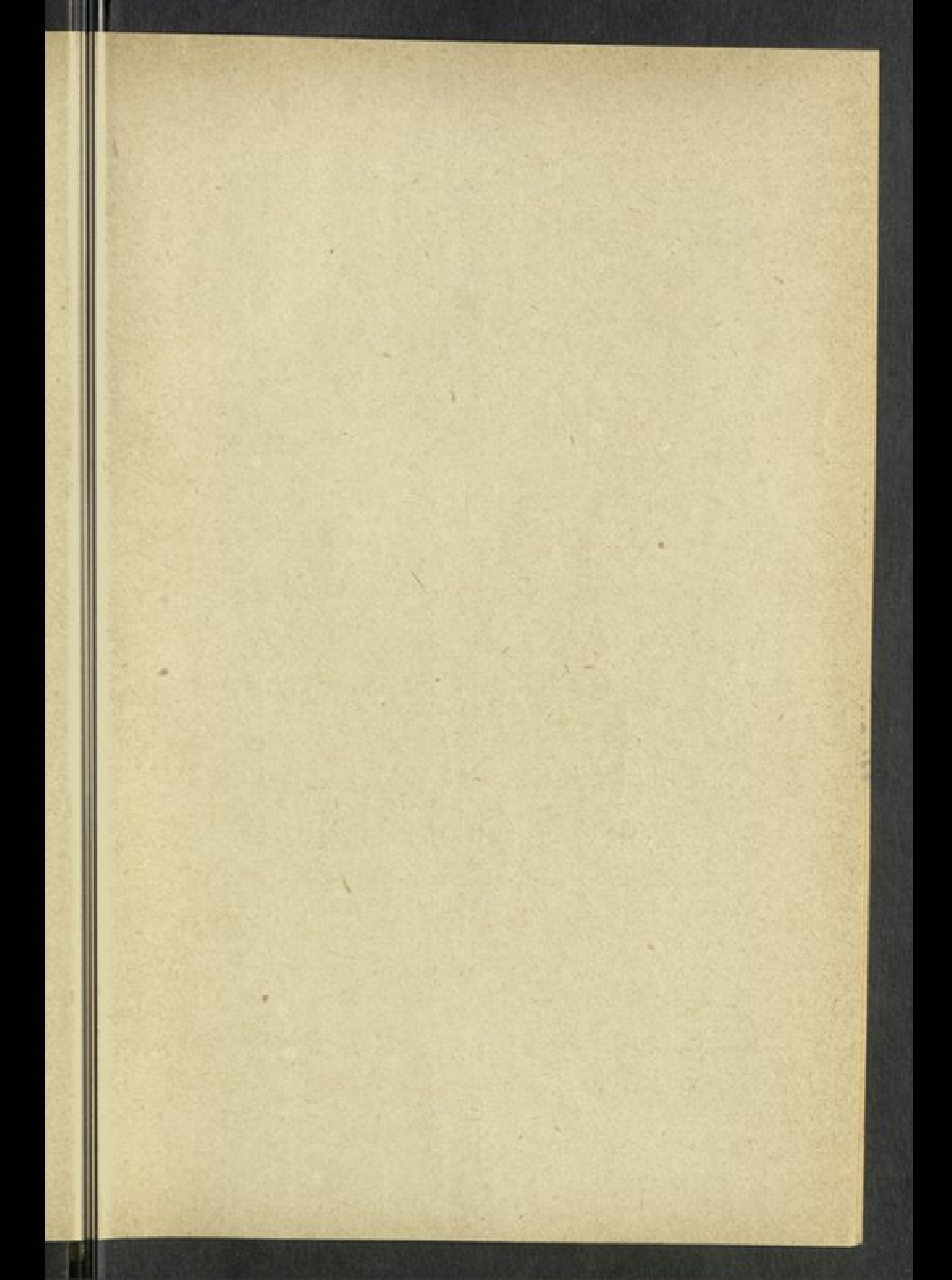
تكوين الدول العربية

ا) البلاد العربية تحت الحكم العثماني

ب) حرب ١٩١٤ – ١٨ – حسين ملك العرب

ج) مملكة ماتت جنيناً : المملكة السعودية العربية

د) ابن السعود أو انتقام البدو



البلاد العربية تحت الحكم العثماني

ظلت البلاد العربية مدة اربعة قرون ، رازحة تحت نير الحكم العثماني ، الذي كان يتنوع ، حسب المناطق . فلم تكن العراق وسوريا وفلسطين ، خاضعة للباب العالي ، إلا في المدن . وكانت شبه الجزيرة ، موزعة بين المشايخ ، والامراء ، والسلاطين . ومنها ما كان شبه مستقل مثل : امراء اليمن وعسير ، وسلاطين مقلة Makalla ، وعمان Oman والكويت ، ومشيخة جزيرة البحرين ، على السواحل ، وامراء نجد وحايل Hail الخ .. في الوسط . وكان للسلطان ، ممثل خاص في مكة ، هو شريف مكة ، وتمتد سلطته الى المدن المقدسة ، وقسم من الحجاز . ومنذ ١٨٣٩ ، استولت انكلترا على صخرة عدن ، وكان نفوذها يمتد ، شيئاً فشيئاً ، مثل بقع الزيت ، حتى عم جنوبي شبه الجزيرة كلها .

في هذه المدة الطويلة ، ودون ان نعتبر ثورات القبائل ، التي كانت - من وقت لآخر - تثور على بعضها ، ثورات قبائلية وطائفية ؛ في هذه المدة ، يستلفت انتباهنا ثلاث ظواهر لها اهميتها .

الظاهرة الاولى هي احتلال مصر ، وجنوبي سوريا ، مـــن قبل جيوش بونابرت ، هـذه الحملة الفاشلة ، التي - لو نجحت - لغيرّت الوضع في الشرق الادنى ، وربمـا في العالم . والظاهرة الثانية هي مهمة جداً ، لأنها تبيّن لنا اول تجربة لتأليف مملكة صرف عربية ومستقلة . هي : المملكة الوهابية .

ففي اواخر القرن الثاني عشر ، قام احد امراء قلب الجزيرة ، هو امير نجد سعود الملقب بالكبير ، ولم يكتف باعتناق المذهب الوهابي فحسب ، بل اجبر اتباعه والقبائل المجاورة ، بالقوة ، عـلى اعتناقه ، وبقيادته تمكن الوهابيون عام ١٨٠٣ من بسط سيطرتهم على الطائف ، والمدينة ، ومكة ، ثم على جميع الحجاز . وفي مكة استسلموا الى نزعة صوفية مقدّسة (Fureur Sacrée) ، فنزعوا عن القبور زخارفهـا ، وابعدوا الاثواب الثمينة ، والاشياء النادرة ، والزموا الحجاج بدفع فدية ، ووضعوا ضريبة على الحج ، وجعلوه تحت حمايتهم ، وتوجهوا بعد ذلك نحو الشمال ؛ فاخذوا فلسطين ، وارادوا محاصرة دمشق ، التي اصبح لهم فيهـا مؤيدون ، غير أن « الباب العالي » وجس خفية ، فسلط عليهم محمد علي الكبير ، الذي تمكن ، بحملة سريعة ان يسترجع جميع فتوحاتهم ، ويستولي عـلى عاصمتهم الرياض ، وقتل او نفى ، جميع زعماء الوهابيين . وهكذا مـاتت اول مملكة عربية ، وهي لم تزل في المهد . ولم تلبث ان عادت الى الحياة ، واصبح المنحدرون من سلالة سعود الكبير ، امراء وائمـــة على الوهابيين ؛ لكنهم امراء ليس لهم اهميـة

تذكر. وظلوا يتقاتلون مع جيرانهم، حتى اذا مضى قرن من الزمن سطع نجمهم وثاروا لانفسهم .

اما الظاهرة الثالثة والمهمة ، والتي كان لها رد فعل قوي ، فهي احتلال سوريا من قبل المصريين ، بقيادة ابرهيم بن محمد علي سنة ١٨٣١ . غير ان فتحه لم يعش طويلاً ، لأن الاتراك طردوه عام ١٨٣٩ ، ولم يتركوا له في معاهدة ١٣ تموز عام ١٨٤٠ ، سوى باشوية مصر

في عام ١٩٠٩ قامت ثورة تركيا الفتاة فقوبلت في البلاد المحتلة ولا سيما في سوريا ، بغبطة عظيمة ، وتعانق النصارى والمسلمون واليهود ، وتآلفوا في اتحاد عام ، وانبرى الشعراء والمؤلفون ، يمجدون النظام الجديد. لكن « الفتيان الاتراك » خيبوا الآمال ، وابوا ان يطلقوا الحريات التي وعدوا بها ؛ بل اعلنوها حرباً شعواء على العناصر الوطنية ، التي تتألف منهم الامبراطورية . وتحولت الحكومة الى منظمة ، اتخذت التدابير التعسفية الارهابية ، ضد كل ما هو غير تركي . وقامت فتن ضد النصارى ، ذبح فيها عدة آلاف من الارمن .

ظلت الحال على ما هي عليه، حروب البلقان (١٩١٢ - ١٣) التي سببت ضعفاً في الامبراطورية العثمانية ، فبدأت الحركات الوطنية التحريرية . ومن الطبيعي ان تكون سوريا - في موقفها وحركات اهاليها الثورية من مسلمين ونصارى - على رأس هذه الاعمال ، التي لم تتجه اتجاها واحداً . فقد طالب قسم ضئيل منهم بالاستقلال التام الناجز. وايد القسم الاكبر منهج حزب «الجامعة

العثمانية » الذي اسسه سوريون في باريس عام ١٩٠٨ ، وهدفه المطالبة بتنفيذ الاصلاح الدستوري الموعود ، واستقلال داخلي ، ضمن جدار الامبراطورية العثمانية ، لكن السلطة العثمانية رفضت رفضاً قطعياً ، الاجابة على هذه المطاليب سنة ١٩١٣ . وفي صيف السنة نفسها ، التأم في باريس مؤتمر سوري ، غايته الزام تركيا بقبول هذه المقترحات ، وذلك بواسطة ضغط من الدول العظمى. غير ان وعد الاتراك باعطاء المطاليب؛ قد توقف في ايلول ، وذلك غب اعلان الحرب في السنة التالية ، ووقوف تركيا مع الدول الوسطى (١)

حرب ١٩١٤ – ١٩١٨

حسين ، ملك العرب

منذ بداية هذه الحرب ، احتلت الجيوش التركية سوريا وفلسطين . وفي ١٤ كانون الثاني سنة ١٩١٥ ، بدأت تركيا هجومها الاول على قناة السويس . غير أن الانكليز تمكنوا ، بعد مراحل متتابعة وبطيئة ، ان يحتلوا « العريش » « وغزه » « والقدس » ،

---

(١) يقصد بالدول الوسطى : المانيا والنمسا (المترجم)

وظلوا هكذا حتى عام ١٩١٨ حيث فتحت لهم معركة Sarona طريق سوريا . وفي الوقت نفسه ، كان العراق مسرحاً لمعارك قاسية ، سجلت هزيمة الانكليز في كوت العمارة Kut Alamara (شباط ١٩١٦) ، لكنهم عادوا في الربيع التالي ، وثأروا لانفسهم بدخولهم بغداد ، وفي السنة التالية الموصل ، قلب المنطقة البترولية .

لم يكن الشعور الوطني ليظهر علانية في البلاد المحتلة . فتحول في سوريا ولبنان الى اضطرابات وتمرد وهرب من الجندية ، ومقاومة ضعيفة ضد المحتلين الاتراك . إلا ان الجوع والارهاب ، اللذين فرضتهما الدولة على لبنان ، فتكا به فتكاً ذريعاً ، فجعلاه يخضع لارادة الاتراك . وذهبت جهود هؤلاء عبثاً ، في محاولتهم توحيد الدروز والعلويين ، الذين ظلوا معتصمين في جبالهم . اما في شبه الجزيرة نفسها ، فان سلاطينها وامراءها المتأثرين بالسياسة الانكليزية قابلوا العروض التركية بالرفض التام . وسنجد شخصين بارزين ، كانا على اهبة الأستعداد ، للقيام بعمل له قيمته الكبرى ، هما عبد العزيز آل سعود ، والحسين شريف مكة .

ولد عبد العزيز آل سعود سنة ١٨٨٠ في الرياض ، عاصمة نجد . وكان والده عبد الرحمن ابو الوهابيين على نجد وعمان ، من سلالة سعود الكبير . وما بلغ عبد العزيز الربيع العاشر ، من عمره ، حتى اضطران يرافق عائلته المنفية ، التي طردها من نجد ، عدوها اللدود امير حايل والتجأت الى سلطان الكويت . وقد ظل في المنفى ؛

حتى عام ١٩٠٣، وكان في الثالثه والعشرين من عمره ، اذ تمكن — بمعركة قاضية ، وجسارة غريبة — ان يسترجع عاصمة آبائه . لكن سلطته ظلت محدودة ، حتى بداية الحرب العظمى . وعبثاً حاول سنة ١٩١٥ ان يثأر من خصمه امير حايل . ولما شعر عبد العزيز ، الذي لقب بسيد الصبر والدهاء ، ان ساعته لم تحن بعد ؛ تريث للامر ، واصم اذنيه مراراً امام وعود انكلترا ، التي ارادت ان يناصرها في معاركها . لكنه قبل اخيراً عقد معاهدة ، تمده فيها بريطانيا بالمال ، مقابل احترامه النفوذ البريطاني على سواحل البحر الاحمر . ولم يعد يسمع له اسمٌ ، حتى نهاية الحرب .

اما الشريف حسين ، رئيس البيت الهاشمي ، فكان اقل تحملا للصبر من زميله . لقد اخلص ، موقتاً ، لمؤسسي « تركيا الفتاة » الذين عينوه شريف مكة الاكبر ، وقد اضطر قبل بداية الحرب ان يساعد في كبح جماح ثورة عسير . وما كان عام ١٩١٤ ان يدخل ، حتى شعر باقتراب العاصفة ، وطلب الى اللورد كتشنر ، المفوض السامي البريطاني في القاهرة ، بواسطة ولده عبدالله ، الذي اصبح امير شرق الاردن ، ان يعلمه عن موقف الانكليز ، في حال انتفاضة يقوم بها العرب . فاجاب كتشنر ان بريطانيا لن تتدخل باي عمل اذا وقعت الواقعة بين الاتراك والعرب ، فكانت بداية يائسة . لكن المحادثات عادت في تشرين الاول بمبادرة من اللورد كتشنر ، وقبل ان تخوض تركيا غمار الحرب ، لان الطرفين المغامرين ، لم يكونا مضطرين بعد الى اعلانها . وفي تموز ، شعر الانكليز انهم بحاجة الى منطقة صحراوية ، لتغطية

عملياتهم بين قناة السويس وفلسطين ، فاعادوا المفاوضات بتبادل الرسائل بين الشريف حسين ، والمفوض السامي البريطاني السير هنري مكماهون

اتخذ الحسين اساساً لشروطه ، برنامج جمعية « الفتيان العرب » في دمشق ، هذه الجمعية التي اسسها ولده فيصل بنفسه وكان عضواً فيها . وفي منهجها ان تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية ، الواقعة ضمن المربع الذي يؤلف سوريا من حدود مصر ، واضنه ومرسين والعراق ، بما فيها الموصل ، وجميع شبه الجزيرة العربية ، ما عدا عدن ، وابطال جميع امتيازات الاحتلال ، وعقد حلف دفاعي بين بريطانيا والمقامات العربية العليا . وقد اضاف الحسين على هذه الشروط ، مسألة اسناد الخلافة اليه

وقد اجاب السر هنري مكماهون في ٣٠ آب سنة ١٩١٥ ، انه يوافق على استقلال البلاد العربية والخلافة ، اما مسألة الحدود فهي سابقة لاوانها . فأصر الحسين على مطاليبه كلها . فرد السير هنري مكماهون بكتاب مؤرخ في ٢٤ تشرين الاول ، وفيه يكرر الرسائل السابقة ، ويجدد التعهدات البريطانية . وقد جاء في الكتاب ما يؤكد للحسين **« أن بريطانيا العظمى ، في حال اطلاق يدها**
« وحدها ، ودون ان تلحق اي ضرر بالامتيازات الفرنسية ،
« فانها تعترف وتسند استقلال البلاد العربية ، في الحدود التي
« عينها الحسين ، ما عدا مقاطعة مرسين ، واسكندرون ،
« والمناطق السورية الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب ،

« التي قد تتخذ لنفسها جذية عربية خاصة ، بعد ان انفردت « بالعمل لأجل هذا الغرض »

قبل الحسين بالحقوق الخاصة بمرسين واسكندرون ، ولكنه ألح بطلب سوريا باجمعها ، بما فيها ساحل البحر المتوسط غير ان السير هنري اصر على موقفه ، وحجته ، هذه المرة ، أن سوريا البحرية تمس بالمصالح الفرنسية . واخيراً تم الاتفاق على ان تنتهي هذه القضيه ، مع قضية بغداد ، في معاهدة الصلح . ولكي نكون منصفين في حكمنا ، لا بد من ان نذكر ان السيد هنري ، ما كان لينسى ان يُبلغ الحسين ، باسلوب قانوني ، بانه لا يريد ، آنئذ ان يباعد بين وجهات النظر الفرنسية ـ الانكليزية .

وما تم الاتفاق ، حتى خاض الحسين غمار المعركة دون تردد . ففاجأ مكة واستولى عليها ، ثم على جده ، وبعد قليل دانت له واحة الطائف ، ولكن المدينة ، الواقعه عند منتهى خط حديد الحجاز ، لم تؤخذ بالهجوم الذي جرب فيصل ان يقوم به .

وكان عليه اولاً بمقتضى المعاهدة المعقودة مباشرة مع انكلترا ، ان يخوض الحرب . ضد الاتراك والالمان . لكن حصة الجيش الشريفي في هذه الحرب كانت بسيطة للغاية ، فما دخل الشريفيون العقبة ، حتى وصلتهم اولى المساعدات المصرية ، وبعض فيالق فرنسية وانكليزية ، فضربوا في البطراء . وفي اواخر ١٩١٧ وصلوا الى ضواحي معان ، واستولوا على خط حديد المدينة ، يساعدهم المصريون بشكل جعل الانكليزي وليم بودي (W. Bury) يقول في

هذا الصدد : « كما يمشي الثعلب وراء الاسد ، ليحصل على بقايا فريسته » (١)

وفي آب ١٩١٨ ، اعيد تنظيم الصفوف ، بقيادة الكولونيل الشريفي نوري بك، يسنده الكولونيل الشهير لورنس Lawrence لولب الحركة في الاردن ، ثم وافتها فرقة فرنسية بقيادة الكابتين بيزاني (Pisoni) ، واكملوا عملياتهم بشكل ثورات نظامية ، حتى استولوا على درعا في ٢٦ ايلول سنة ١٩١٨ ، وهكذا نالوا نصيبهم في سحق قوى العدو ، التي هزمها الجنرال اللمبي (Alemby) في معركة سارونا Sarona ، دون ان يكون للحسين او لفيصل اي نصيب في الجبهة . واذا اردنا ان نصدق الجنرال ليمان فون ساندرز (Liman Von Sanders) ، الذي كتب في مذكراته يقول عن فيصل « **انه عرض على القيادة الالمانية ، ان يحتل هو شرقي « الاردن ، مكان الجيش الالماني الرابع ، اذا اعطته الحكومة « التركية تأكيداً بالسماح له بتأليف دولة عربية** » . ولم تكن عروضه باقل منها مع الانكليز ، لدى احتفاله بدخوله دمشق في اول تشرين الاول . وبعد مطاردة فاترة ، وقعت معركة نهائية، في ٢٥ تشرين الاول جنوبي حلب ، سمحت للجيش الشريف بالدخول اليها في ٣١ منه ، لكن الهدنة وضعت حداً لتقدم الشريف فيصل .

---

(١) يقصدون هنا ، ان المصريين كانوا في مؤخرة المعركة ، وان المعارك والهجوم كانا للجيش الشريفي (المترجم)

لم يكن فيصل مسروراً من عدم فتحه سوريا كلها . فما دخل دمشق ، حتى أرسل مبعوثاً من قبله الى سراي بيروت ليرفع عليها العلم الشريفي . وهكذا بدأت المملكة العربية ، تتخذ شكلها ، لكنها لم تكد تولد ، حتى بدأت الاخطار القوية ، تهددها .

مملكة ماتت جنينا

المملكة السعودية العربية

كانت فرنسا اول حاجز وقف في سبيل فيصل . والسبب في ذلك يعود الى ان فرنسا كانت تعتقد ان حقوقها في سوريا ولبنان ناتجة ، عن علاقات قديمة ، وعن المعاهدات التي وقعتها مع انكلترا

ان المعاهدة، التي وقعها فرانسوا الاول الفرنسي مع الحكومة التركية سنة ١٥٥٦ ، جعلت لفرنسا قوى وعلاقات سياسية ، وثقافية واقتصادية ، تبلورت ونمت على ممر القرون التالية . ومنذ النصف الثاني في القرن التاسع عشر ، تطورت المشاريع الفرنسية، كاشغال الطرقات ، وسكك الحديد ، والمرافيء الخ .. واشغلت رؤوس الاموال بكثرة ، ولا سيما في لبنان اثناء حملة ١٨٦٠ ، تلك الحملة التي اكدت حماية اللبنانيين من الدروز ، وبالتالي جعلت اللبنانيين يحفظون جميلنا . فالتربية الوطنية كانت بكاملها ، تقريباً ، بين ايدينا وفي بداية حرب (١٩١٤ – ١٨) ، كان اكثر من اثنين وخمسين الف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان

بين هؤلاء ، فتيان وفتيات ، ينتمون الى عائلات اسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السورية ، التي تألفت في باريس ، ان تعلن عام ١٩١٧ ، **« أن جميع ميول السوريين وعواطفهم ، تتجه « نحو فرنسا ، بعد ان تعلموا لغتها ، وخبروها على مر الاجيال « وتأكدوا من اخلاصها وتجردها »**

لقد اضطرت انكلترا ، ان تتعرف الى هذا المركز الممتاز . فبعد تبادل وجهات النظر في لندن عام ١٩١٥ ، بدأت محادثات رسمية في لندن ايضاً ، وانتهت في بتروغراد (١) فاسفرت ، في ١٦ حزيران ، عن معاهدة عرفت باسم سايكس بيكو Sikes - Picot ، والحقت بفرنسا وانكلترا ، مناطق نفوذ قسمت الى فئتين – الفئة الاولى هي المناطق التي سمحت فيها المعاهدة لهاتين الدولتين ، ان تفرضا الحكم المباشر او غير المباشر عليها ، او عقد أي اتفاق باسمها . والفئة الثانية ، هي المناطق التي بامكانها ان تشكل دولة عربية مستقلة ، مرتبطة مع الدول العربية الاخرى. وقد الحقت بفرنسا من الفئة الاولى (المنطقة الزرقاء) : لبنان ، بلاد العلويين ، سنجق اسكندرون ، كيليكية ، منطقة مرعش ، دياربكر ، وماردين . ومن الفئة الثانية، سوريا الداخلية ، ومنطقة الموصل . والحقت بانكلترا من الفئة الاولى (المنطقة الحمراء): بلاد العراق السفلى ، بما فيها مدرج يضم ضواحي بغداد ، ومن الفئة الثانية ، العراق الاوسط ، وجميع البلاد الواقعة بين

---

(١) لنغراد اليوم

الفرات ،وفلسطين وصحراء سينا . غــير ان القسم الاكبر عن • فلسطين ، (المنطقة البنية) ، اصبح بحاجة - لوقوعه في الاماكن المقدسة - الى نظام دولي ، وافق عليه الحلفاء ، وشريف مكة .

إلا أن تدابير كهذه يصعب تطبيقها مع معاهدة ما كماهون - حسين . كما وان هذا الاخير لم يكن يعلم بأن البولشفيك سيبعثون اليه عام ١٩١٧ ، بنسخة من اتفاقيات سايكس بيكو ، وجدت بين ملفات الروس الدبلوماسية (١) . وكان الانكليز قد اخبروه ، في هذا الوقت ، انهم لا يرمون من وراء تلك الاتفاقية (سايكس - بيكو) اي وضع نهائي ؛ وان بيان الحلفاء سيحقق وعد الجنرال اللمبي ، الذي يقول : « إن واجب الحلفاء هو معاضدة « قيام حكومات وادارات جديدة » (٢) فمنذ الهدنة ، كانت جميع البلاد العربية ، تقريباً ، محتلة من قبل القوات البريطانية . وكان الجنرال اللمبي نفسه ، حاكمها المدني والعسكري ، يعاونه ، من قبل حكومة فرنسا ، السيد جورج بيكو ، ومن قبل الجيش الفرنسي ، كتيبة صغيرة ، بقيادة الكولونيل بيباب Piepape

اما « ملك العرب » فكانت صلاحياته تمتد على الحجاز فقط ،

---

(١) بعث الثوار الروس ، الى الملك الحسين ١٩١٧ بنسخة من معاهدة سايكس - بيكو ، ليبينوا له سوء نية الحلفاء تجاه البلاد العربية ، وذلك ليعرف كيف يتجه في محادثاته السياسية (المترجم)

(٢) ان الاتفاقيات الانكليزية وتصاريح رجـــالهم السياسيين ، مع الدول الصغرى ، تظل دائماً مبهمة (المترجم)

بعد ان زالت الحراسة التركية عن المدينة في شباط ١٩١٧ . اما فيصل فكان في دمشق ، حيث اغتنم الفوضى الضاربة ، آنئذ ، في عموم البلاد، وقبل ان يستشير الحلفاء ، اسرع بتسمية مجلس وزراء مؤلف من خمسة عشر عضواً ، وذهب بنفسه يدافع عن اعماله في مؤتمر السلم .

اصطحب فيصل الكولونيل لورنس ، وقصد لندن اولا ، حيث استقبل بحفاوة بالغة ، ثم وصل باريس ، في الوقت الذي اتخذت فيه المحادثات بين كليمنصو ولويد جورج ، بشأن الموصل وفلسطين ، شكلاً عنيفاً جداً . واراه ان يتدخل في المحادثات ، لكن « المجلس الاعلى » ، تظاهر بعدم الانسجام بين اعضائه ، واجل اعطاء قراره ، ثم ارسل ، من قبله ، « لجنة تحقيق » ، كانت مؤلفه من اميركيين اثنين .

بدأت هذه اللجنة عملها في الصيف ، وقدمت بياناً عن تحقيقها ، خلاصته « **أن اكثرية البلاد، التي بامكانها ان تعبّر عن رأيها ، طلبت** « **فرنسا . وأن قسماً كبيراً من هذه البلاد ، يعارض علانية ،** « **فكرة الاتحاد مع الحجاز ، بحجة انه لا يجوز ان تخضع بلاداً** « **غنية متمدنة ، لمملكة فقيرة تقطنها القبائل الرحل** » . وكانت الجاليات السورية في مصر واميركا واوستراليا . طلبت بصراحة « **فصل القضية السورية عن القضية العربية . لان سوريا رغم** « **انها ، اليوم ، تتكلم العربية ، فهي لا تمت الى العنصر العربي** « **وعلى هذا ، فان الجاليات السورية ، تناشد الضمير البشري** « **والعلم لتنفيذ رغبتها** » .

وفي ١٥ ايلول ، بدأت محادثات بين كليمانصو ، ولويد جورج لم تحدد فيها مسألة الحدود النهـــائية ، فاسفرت عن اتفاق يقضي بانسحاب الجيوش البريطـانية من سوريا البحرية ، وكيليكية ، لصالح الجيوش الفرنسية ؛ وتظل بريطانيا في منطقة الموصل . واذا اخلت جيوشهـا سوريا الداخلية ، فلا يحق للجيوش الفرنسية ان تدخل مكانها . وهكذا تبقى حلب وحمص وحماه ، للجيش الشريفي . وفي ٢٧ تشرين الثـاني سلـّم الجنرال اللمبي السلطات المدنية والعسكرية للجنرال غورو ، الذي دخل باعتباره « المفوض السامي ، والقائد الاعلى للجيوش »

وفي الوقت ذاته ، عاد فيصل الى باريس ، وجرب ان يجري محادثات نهائية يعرف فيها صلاحياته في سوريا الداخلية، لقاء تنازله عن سوريا البحرية . لكنه لم يتلقَ سوى اجوبة مبهمة وغامضة وغير محدودة . فعاد الى سوريا ، يريد ان يستعجل الامور ، فعقد اجتماعاً « للمجلس السوري العـــام » في ١٧ آذار ، أعلن فيه ملكاً على سوريا . وعوضاً عن ان يكون هنالـك « مملكة عربية كبرى » ، اسفرت النتيجة عن مملكتين صغيرتين ، مقسمتين بين الاب وابنه . ومع ذلـك فان انكلترا وفرنسا تفاهمتا في سان ريمو (San Rémo) في ٢٥ نيسان على موضوع امتيـازات الانتداب ، لتكون فرنسا منتدبة على سوريا البحرية والداخلية ، وانكلترا على فلسطين وبلاد ما بين النهرين ، مع الموصل ، التي رفضت فرنسا .

جرّب فيصل ان يتجاهل قوات الانتداب ، فراح يحكم بصلاحيات ملك مطلق . فرفع الضرائب ، وعزل الموظفين الفرنسيين ، وقرّر التجنيد الاجباري ، وقابل فرنسا بالتحدي والاستفزاز ، ومنع تصدير الحبوب الى السواحل ، واغار على محطاتنا وكتائبنا ، التي بدأت تبعد الجيوش الانكليزية ؛ واخيراً اغلق خط رياق — حلب الحديدي ، في وجه النقليات العسكرية ، ضارباً عرض الحائط بمسألة تموين جيوشنا التي وصلت ، في كيليكية ، الى وضع صعب جداً . وعبثاً حاول الجنرال غورو ان يتفاهم معه ، فاضطر اخيراً ان يبعث اليه بانذار (Ultimatum) . فحاول فيصل ان يبرر اعماله ، في الوقت الذي هاجم فيه الجيش الشريفي احدى محطاتنا الواقعة بين طرابلس وحمص . فدخل الجنرال غورو حلب وحمص وحماه ، ووجه الى دمشق جيشاً قوياً بقيادة الجنرال جوبيت Goybet . لكن كتائب الشريف ، التي حاولت صدها ، غلب على امرها ، نهائياً ، في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠ في خان ميسلون ، وفي صباح اليوم التالي ، دخل الجنرال جوبيت الى دمشق ؛ فتسلل الملك فيصل وقسم من مستشاريه نحو الجنوب . وهكذا لم تعش المملكة السورية — العربية ، اكثر من مئة يوم .

كان سقوط فيصل ، ضربة قاصمة ، بالنسبة الى انكلترا ، التي كانت ترى املها يزهر ، لتلعب دورها ، فتمد نفوذها وسلطانها ، من دمشق ، على جميع البلاد العربية والاسلامية . فسلمت بالامر الواقع ، منتظرة سانحة اخرى ، واحتضنت فيصلا ، ونادت به ، في آب ١٩٢١ ، ملكاً على العراق ، الذي كان تحت الانتداب

الانكليزي . كما رفعت ولداً آخر من ابناء الحسين ، الى رتبة الامارة ، هو عبدالله ، واعلنته اميراً على شرق الاردن ، وكان ايضاً تحت الانتداب الانكليزي. وهكذا فان انكلترا ، لم تتنازل عن فكرة استعمال الحسين وابنائه ، لتحقق – تحت كنفها وحمايتها – نواة الوحدة العربية ؛ لكنها ستجد ان مفتاح الدخول الى هذا البناء ، سيتحطم ، تحت ضربات ابن السعود (١)

ابن السعود

او انتقام البدو

ظل ابن السعود ، امير نجد ، يتربص طيلة الحرب العالمية الاولى . ولما كانت بريطانيا قد عينت له راتباً يعيش منه ؛ فقد اقام معها علاقات حسنة ، بواسطة العميل البريطاني فيلبي ، الذي اعتنق الاسلام ، لتعم خدمته لبلاده . ولم يكن ابن السعود يرتاح كثيراً لمركز الحسين وابنائه في العالم العربي ؛ سيما وان بريطانيا تعطف عليهم ، وتقدم لهم كل معونة . فاعتقد ان الفرصة مؤاتية له – عام ١٩١٩ – واشهر السلاح فجأة في وجه ملك الحجاز

(١) يقصد المؤلف ان انكلترا ، احتضنت الحسين وابناءه ، لتبني على اسمهم وحدة عربية كاملة ، تحت سيطرتها ونفوذها ، كما هي الحال اليوم في العراق وشرق الاردن . لكن حلمها لن يتحقق ، بعد ضربات ابن السعود ، التي سنراها في الفصل التالي (المترجم)

وغلبه في معركة كرما Kurma . لكنّ بريطانيا ، خافت على مصير محميها ، فتدخلت بشكل جعل ابن السعود ـ غير الواثق من قوته ـ ان يتظاهر بالاقتناع ، ويتراجع ، ولكن ليفتش عن مؤن ويجمع قواه .

كان العداء مستحكماً ومزمنـــاً ، بين امراء نجد ، وقبائل « شمّر حايل » . فأمير حايل ، هو الذي طرد والد ابن السعود من موطنه وابعده عنه . فمن الطبيعي ، اذن ، ان يحلم ابن السعود بالانتقام من هذه القبيلة ، التي ـ فضلاً عن ذلك ـ تقف اراضيها بين الطريق المباشرة من نجـد ، نحو بلاد البحر المتوسط الغنية . فبدأ حملته عام ١٩٢١ ، وقضى ، نهائياً ، على قبائل الشمر ، فقتل اميرها ، وتزوج من زوجته ، واحتضن اولاده ، واحتـل دياره بكاملها . وجاء دور « الجوف الخالي » ، الواقعة الى الشمال ، وعلى طريق البحر الابيض المتوسط . انها بلاد قبائل « الرولى » ، التي يرئسها الامير نوري الشعلان ، الذي كان يشارك الكتائب الشريفية في شرق الاردن . ولما غلب نوري الشعلان بدوره ، غادر الجوف الخالي ، ودخل دمشق حيث ظل اميناً لصداقته مـع فرنسا ، حتى وفاته .

فتح احتلال الجوف الخالي ، امام ابن السعود ، طريق القوافل من مصر حتى خليج العجم ، وجعله سيداً عـــلى منطقة « وادي سرحان » ، ذلك الوادي الذي يحتل مركزاً ممتازاً ، نظراً لوفرة ينابيعه ، ووقوعه في نقطة الاتصال بين الجزيرة وسوريا وفلسطين فشعر الانكليز ، هـذه المرة ، انهم هددوا مباشرة ، فانذروا ابن

السعود بانه اذا اكمل سيره نحو الاردن ، فانه سيصطدم بالقوات البريطانية . فلم يلح ابن السعود على التقدم ، وفتح مفاوضات في عمان ، اسفرت عن اعتراف بريطانيا بفتوحاته ، وهكذا ، بعد ان وسع قاعدة عملياته ، وزاد عدد قواته ، اصبح بامكانه ان يعود الى عدوه الرئيسي : الملك حسين .

ففي عام ١٩٢٤ استولى على المدن المقدسة : المدينة ومكة ، فهرب الحسين الى قبرص ، بعد ان استقال لصالح ولده علي ، الذي لم يبق طويلاً حتى اختفى بدوره ، وتنـــازل لاخيه امير شرق الاردن عن مرفأ العقبة ، وهي آخر مدنية حجازية ظلت في حوزتهم ، حتى اليوم ، وذلك لان بريطانيا شعرت بمركز العقبة الستراتيجي ، فاسرعت بجيوشها لنجدة عبدالله فتجنب ابن السعود الالتحام معهـا ، وحول وجهته نحو الجنوب ، حيث وضع تحت حمايته امير عسير ، فامتد سلطانه شرقاً حتى خليج العجم ، بواسطة زاوية تقع بين الممتلكات الانكليزية في الكويت وامارة قطر .

وهكذا ، فان بريطانيا ، بتسليمها بالامر الواقع في سياستها الاستعمارية ، والتي تبنت قضية البيت الهاشمي ، اسرعت وعقدت مع ابن السعود عام ١٩٢٧ ، معـاهدة اعترفت به ملكاً على نجد والحجاز . وجددت هذه المعاهدة سنة ١٩٣٧ دون ان يتمكن ابن السعود من استعادة حقه في مرفأ العقبة .

وبعد مدة ، اعلن ابن السعود الحرب على يحي امير اليمن والامير يحي « المتوكل » اي الذي يتوكل على الله ، هو السيد المطلق لليمن ، البلاد التي لا تزيد مساحتها على ٦٢ الف كيلو متر

مربع، ولكنها من اغنى البلادالعربية، ولذا دعيت باليمن السعيدة وهو يحكم على مليون ونصف من السكان ، مليون منهم من الزيديين ، او المسلمين الهراطقة، ومئة وخمسون الفاً من اليهود ، والباقي من الاحباش والدنكل (١) الذين قدموا اليها منذ قرون عبر البحر الاحمر . وكان للامير يحيي من قوة الشخصية ، ما يؤهله ليلعب دوراً رئيسياً في الوحدة العربية ، او ليكون على رأسها وهذا ما جعله يضيق على ابن السعود امير نجد . وكان قد توصل الى شهرة لا بأس بها قبل عام ١٩١٤ ، بمساندة الاتراك وابعاد خطر الهزيمة عنهم . ولما اعلنت الحرب وقف الى جانبهم ، واراد ان يتوسع ، فابتغى عسير .. لكنه تخلى عنها مكرها ، لان ابن السعود سبقه اليها . فيمم وجهه شطر الانكليز ، ولم يخشَ مطالبتهم باراضي عدن ، والمدينة ذاتها . لكن بضعة قنابل اوقفت جموحه، فعزى نفسه بنشاط سياسي . فعقد في ٢ ايلول سنة ١٩٢٦ معاهدة صداقة مع ايطاليا ، اخذت فيها على عاتقها حماية اراضيه ، ومده بالسلاح ، وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢٨ عقد ميثاق« وداد وصداقة وتجارة » مع السوفييت . وفي شباط سنة ١٩٣٤ عقد ميثاقاً مماثلاً مع الانكليز ، وانهى مسألة الحدود ، مع محمية عدن ، في بند خاص مما اقلق ابن السعود ، فاعلن عليه الحرب في ربيع السنة ذاتها وقهره . لكن ايطاليا وبريطانيا ، اوقفتاه عند حده . الاولى

(١) الدنكل هم العرب المستعربون الذين جاءوا اليمن من بين جبال الحبشة ومضيق باب المندب (المترجم)

خوفاً على الاريتريا ، والثانية على عدن ، اذ ليس من صالحهما ان يلاصق حدودهما جار قوي . فاكتفى ابن السعود بعقد معاهدة الحقت السياسة الخارجية لليمن بسياسة نجد ، وظلت هذه المعاهدة تشغل فكر الامام يحي ، حتى وفاته ١٩٤٨ .

وهكذا وقف في وجه « المملكة العربية الكبرى » ، الطريحة المبعثرة ، مملكة ابن السعود العربية. فلما غادر الحسين بلاد الحجاز، جعل وجهته بلاد الحضارات القديمة (١)، بعكس ابن السعود الذي جمع الدم العربي الصرف . اي ان البدوي الذي هجر الصحراء ، وجعل آخر هدفه ، مدنية الحجاز وكانت نقطة انطلاق احدهما، نقطة وصول الآخر .

كانت جميع الفتوحات التي قام بها ابن السعود ، تعلن باسم « الله » فتطبيق القرآن بجميع واجباته القاسية ، كانت تبرر مشاريعه . وكانت عدته « الاخوان » ، وهم جماعة من الجنود المتعصبين ، كان ابن السعود جمعهم قبل حرب (١٩١٤ – ١٨) في شبه حزب . وهكذا اصبح السيد المطلق على بلاد يقطنها ستة ملايين من السكان ، وتزيد مساحتها على مساحة فرنسا بخمس مرات ؛ وهو غير مسؤول ، عملياً ، الا امام الله ، ونظرياً، امام مجلس من العلماء ، يملك صلاحيات وهمية . ولخزينة هذه الدولة مصدران هما : الحج الى مكة المكرمة ، وعلى الاخص النفط ، الذي سنرى ، في ما بعد ، قيمته وعظمة تطوره.

---

(١) بلاد « الحضارات القديمة » ، هي سوريا والعراق وفلسطين .

الفصل الثالث

تطور البلاد العربية

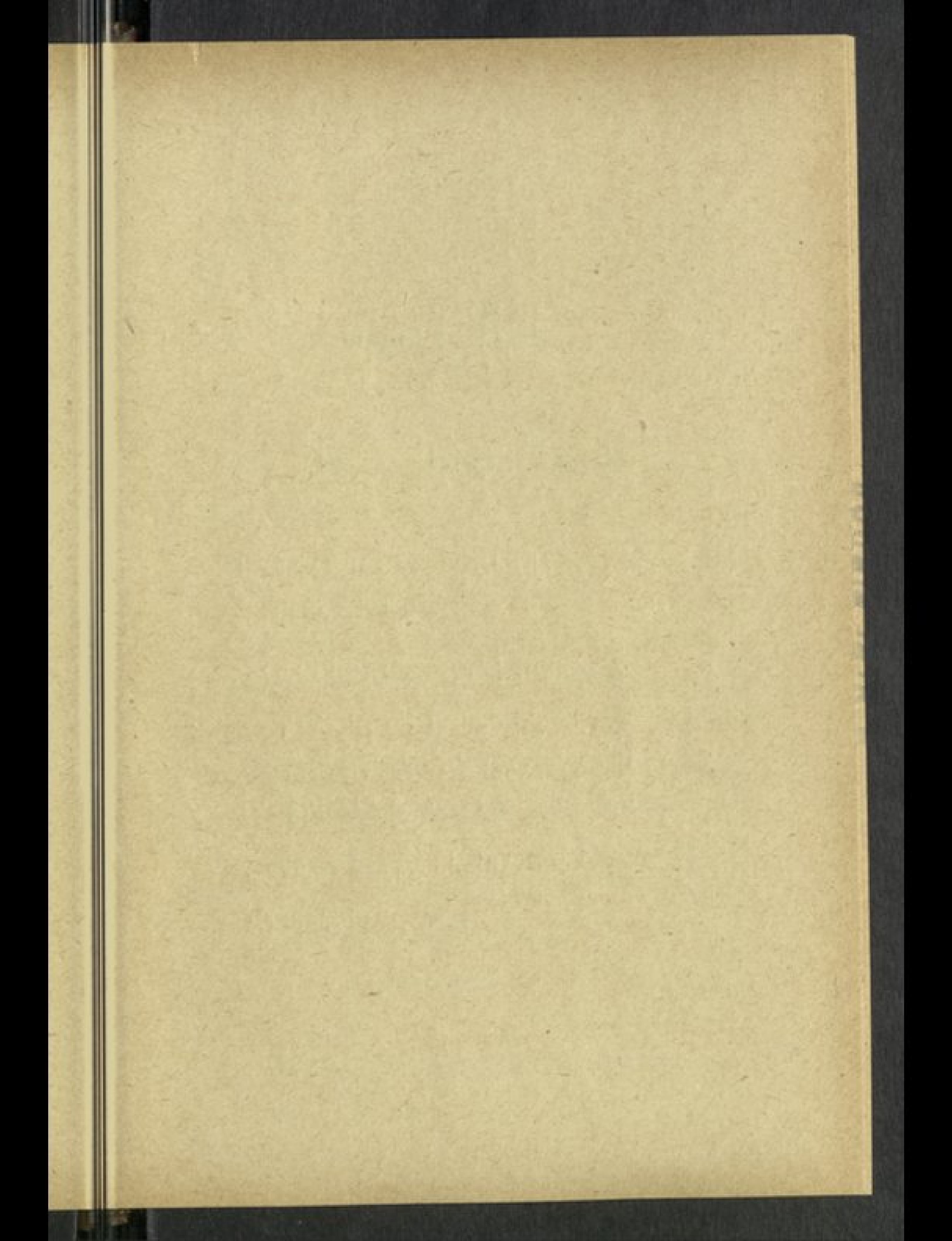
ا) البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي . سوريا ولبنان . تاريخ سوء التفاهم .

ب) البلاد الواقعة تحت الانتداب الانكليزي :

١ً) العراق ، او انبعاث فيصل
٢ً) شرق الاردن ، او الامير الذي يملك ولا يحكم
٣ً) فلسطين او عندما تريد اسرائل ان تملك

ج) العربية السعودية ، او الموافقة بين الاضداد

د) تناقض الوضع المصري



البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي

سوريا ولبنان . تاريخ سوء التفاهم

مـــا كاد الجنرال غورو ، يطرد الملك فيصل من دمشق ، ويصبح وحده سيداً على سوريا ؛ حتى وجب عليه ان يطبق في البلاد ، حكماً سياسياً ، يوافق شروط الانتداب . نقصد بهذا ، أن على الانتداب ان يكمل ، في مدة ثلاثة اشهر ، دستوراً سياسياً يهيأ **بالاتفاق مع الهيئات الوطنية ، ويعالج حقوق ، ومصالح ، وعادات جميع السكان ، ويعمل ليسهل التطور التدريجي لسوريا ولبنان ، ليكونا دولتين قويتين ، وان يساعد على الاستقلال الناجز في معناه الكامل ، او على قدر ما تسمح الظروف »** .

ان هذا المنهج ، وضع الانتداب امام مشكلة صعبة ، قـــد يستحيل حلها . وهو ما يفسر حيرتنا واخفاءنا ؛ فضلا عن ذلك ، فان فكرة الانتداب تشكل ، بحد ذاتها ، الاسباب الاساسية لسوء التفاهم . لقد كان من واجب المنتدب عليهم ، ان يثبتوا — في وقت قصير — كفاءاتهم السياسية ، لكي يحصلوا على حقهم في الاستقلال الكامل . بينما كان على المنتدبين ، ان يوجهوا جل

اهتمامهم وتضحياتهم ، عن رضى ، ليحافظوا على تقدم ورقي البلاد، وبنوا دستوراً يكمل مهمتهم ، دون ان يهملوا تحقيق الحكم الذاتي .

فكيف كان وضع البلاد ، اذن قبل دخولنا اليها ؟

كانت سوريا ولبنان، ايام الاتراك ، مجزأة بين ولايات دمشق وحلب وبيروت ، دون ان يكون لولاية بيروت اية علاقة مع جبل لبنان ، الذي جعل له نظام خاص بعد مذابح ١٨٦٠، وتدخل الفرنسيين . واصبح « الجبل » ، متصرفية، له حاكم مسيحي يعينه الباب العالي ، وترضى عنه الدول العظمى . وكانت منطقة الفرات متصرفية خاضعة ، مباشرة ، لاسطنبول ، ومركزها دير الزور .

ليس في العالم شعب خليط بالعنصر والدين ، كما في سوريا ولبنان : مسلمون سنيون وشيعيون في لبنان . وفي سوريا : سنيون ، دروز ، علويون ، اسماعيليون ، اكراد ، يزيديون ، مسيحيون ارثوذكس ، كاثوليك ، موارنة في جبل لبنان ، روم سريان ، آشوريون - كلدانيون، يهود، عرب متحضرون ، وبدو من الصحراء . وكانت بيروت ، الشرقية الوجه ، الغربية الحضارة مكروهة من دمشق ، الارستقراطية ، والمتعصبة في اسلامها . وكانت حلب ، المعجبة بتجارتها ، تحتقر الجنوب ، وتتجه بتجارتها وميولها نحو تركيا . ولم تكن هنالك وحدة الا بطلب الاستقلال الذي انقلب في سوريا الى شعور بكراهية الفرنسيين - واذا اردنا تحديداً صحيحاً - بالكراهية والمقاومة للانتداب

وجد الجنرال غورو سوريا ، لدى دخوله اليها ، حاقدة حانقة على الانتداب ، مضطربة من مغامرة فيصل . وكانت تقيم علاقات تجارية مع لبنان ؛ فالحق الجنرال غورو بجبل لبنان مناطق مهمة : مقاطعة طرابلس وسهل عكار في الشمال ، وجبل عامل في الجنوب ، وخاصة سهل البقاع الغني ، الواقع بين السلسلتين الشرقية والغربية ، والذي قال عنه المؤرخون القدماء: « ارض شهية طيبة يجري فيها اللبن والعسل » وينتج اليوم الكرمة والحنطة . ويزيد عدد سكان هذه الدولة الجديدة عن المليون نسمة بقليل . اما منطقة طرابلس فهي رغم الهجرة ، يتساوى فيها ، تقريباً المسلمون والمسيحيون . وفي ٢٢ نوار سنة ١٩٢٦ ، تحول لبنان الكبير ، الى الجمهورية اللبنانية ، لها رئيس جمهورية ، ومجلس وزراء ، ونواب . واتخذت الجمهورية الجديدة ، العلم المثلث الالوان تتوسطه الارزة ، علماً وطنياً .

وفي عام ١٩٣٦ ، وتشبهاً بما جرى مع سوريا ، عقدت معاهدة فرنسية – لبنانية ؛ ومن شروطها ، « **ان يقدم لفرنسا – اذا وقعت الواقعة – جميع مرافق البلاد ، ويسمح لها باي نوع من الاحتلال ، الذي تراه موافقاً للمصلحة** » وكان توقيع هذه المعاهدة ، معلقاً على توقيع المعاهدة الفرنسية – السورية ، التي لم تنفذ . وعند اعلان الحرب ، ثبت لنا ان اللبنانيين – رغم المعارك التي ظلت حامية في الشرق – وافقوا على الانتداب ، وكانوا مطمئنين على اوضاعهم . اما صلاتهم بفرنسا وعرفانهم جميلها فكانت ولا تزال ، حتى الآن ، قوية ليس بامكان احد ان ينكرها .

ما اصبح لبنان الكبير ، في عالم الوجود ، حتى اصبح على فرنسا ان تنظم سوريا . فكان للاتفاقية المعقودة في ٢٨ تشرين اول سنة ١٩١٨ ، والتي وضعت سوريا تحت الادارة الشريفية ، اثرها القوي في تحريك الشعور الوطني، الذي بدأ يوم بدأت فكرة الوحدة والاستقلال . وكان ايضاً لولادة مملكة فيصل وسقوطها السريع ، اثرها الفعّال ، في تحريض النفوس ، مما خلق اوساط مقاومة عنيفة في كثير من الاماكن ، واعلن عصياناً مسلحاً . فاضطرت فرنسا - لكي تهدىء الحال - ان تقمعه بقوة السلاح . وكان وضعنا صعباً . ذلك لان قسماً كبيراً من قواتنا كان في كيليكية والاناضول ، حيث شن الاتراك ضدنا ، حرباً شعواء. غير ان معاهدة انقره عام ١٩٢١، كلفتنا كيليكية الغنية، ولكنها كانت ، على الاقل، كافية لتطلق ايدينا في سوريا .

لقد طبقنا حكماً في سوريا ، يتناسب مع التسامح الذي فطرنا عليه . فمنذ ١٩٢٠ ، انتبه الجنرال غورو الى التناقضات التي تفرق مناطق سوريا . فخلق منها ثلاث دويلات : حلب ، دمشق والعلويين . اما سنجق اسكندرون ، حيث يؤلف فيه الاتراك عدداً لا يستهان به - نصف السكان تقريباً - فقد كان له نظام خاص . وبعد فترة ١٩٢٢ ، ولدت دويلة اخرى هي : جبل الدروز. لكن هذه الدويلات لم تكن، بالواقع ، سوى مقاطعات اذ ليس بامكان احداها ان تعيش منعزلة . وسيأتي يوم تراعى فيه هذه الفكرة . وهذا ما فعله الجنرال غورو في تموز عام ١٩٢٢ ،اذ

جعل لكل مقاطعة ، مجلس شورى له امتيازات مطلقة ، وبامكان هذا المجلس ، ان يدرس ويقرر جميع المنافع العامة ، بما فيها الموازنة. وكان هذا المجلس يجتمع ، بالتناوب ، وله رئيس ينتخب لسنة واحدة ، وبالمناوبة ايضاً ، من ممثلي دمشق وحلب .

لم تكن قيمة الاتحاد سيئة . ولكن قيمة هذا الاتحاد تكون اكثر منفعة ، لو جمعنا سوريا ولبنان سوية . وكان من الاصح ان نوحدهما . فلا يعزل سكان لبنان ، الذين يشكلون اكثرية نصرانية فيزيد حينئذ انصار الفرنسيون في بلد واحد (١) .

لكن رفض لبنان لهذا النظام ، سيجعل النظام السياسي في سوريا صعباً ، واكثر من هذا ، فسوف يعقد حل المسائل العامة ، التي تعود منفعتها على جميع البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي . وبالفعل فقد نتج عن النظام الاتحادي في سوريا ، ان الموظفين كانوا يؤخرون سير الاعمال بشكل جعلنا نتخلى عن فكرة الاتحاد . وهكذا فان الجنرال ويغان (Weygand) الذي خلف الجنرال غورو سنة ١٩٢٣ ، قضى – في السنة التالية – على الاتحاد وخلق من دمشق وحلب دولة جديدة منفصلة عن سنجق اسكندرون اما العلويون والدروز ، فظلوا مستقلين عن دمشق ، وبقيت

---

(١) يقصد المؤلف ، ان فرنسا لو وحدت سوريا ولبنان في دولة واحدة ، يزيد انصارها في جمهورية واحدة ، وبالتالي تظل متذرعة بحماية النصارى . اذ يعتقد المؤلف انهم موالون لفرنسا ، فتبقى البلاد بايديهم (المترجم)

علاقاتهم ، مباشرة ، مع سلطات الانتداب .

إن انشاء الدولة السورية – اذا استثنينا الادارات المتعددة – اظهر تقدماً محسوساً . لكنه خلق تكتلا من العناصر التي تميل بنزعتها نحو العرب اكثر منها نحو الغرب . وبالتالي كتّل العناصر التي لا تحبذ الاشتراك مع اية دولة اوروبية

لم يبق ، اذن ، من الناحية السياسية ، الا ان تطبق الشروط التي نص عليها صك الانتداب . ولم يكد الجنرال ويغان يبدأ بتطبيق الشروط ، حتى دعي الى فرنسا ، وخلفه الجنرال ساراي Sarrail ، الذي اضطر في ربيع ١٩٢٥ ان يقمع عصيان الدروز

قد يكون من المستغرب ، ان بلداً مؤلفاً من ستين الف مواطن ، يهدد فرنسا بالهزيمة لبضعة اشهر . ويعود الفضل في ذلك الى قوات الدروز الحربية ، وشجاعة محاربيهم التي لا تنكر ، واساليبهم الملائمة للأراضي الوعرة ؛ فباتوا في سكرة من الانتصارات اليائسة لدى الالتحامات الاولى . زد على ذلك ، ان الفتنة ما كادت تذر قرنها في الجبل الدرزي ، حتى تناست جميع العناصر السياسية تفرقها وخلافاتها والاحقاد القديمة بين دمشق والدروز ، واتحدت جميعها لمقاومتنا . ومما هو جدير بالذكر ، ان الثورة لم تكن لتعيش طويلا ، لولا المساعدة الخارجية التي جاءت من احدى الدول التي كانت تنتظر هزيمتنا ، لتحل محلنا . لكن المعركة انتهت في تموز سنة ١٩٢٦ ، واصبحت فرنسا سيدة الموقف ، واصبح بامكانها ان تكمل رسالتها ، وتطبق منهجها .

في تشرين الثاني سنه ١٩٢٥ ، جاء المسيو دي جوفنيل (M. de Jovenel) المفوض السامي الجديد ، الذى خلف الجنرال ساراي ، حاملاً معه النظام البرلماني . لكن الانتخابات قوطعت . فدعي الشيخ تاج الدين ، ابن احد العلماء المحترمين ، والوطني المعتدل ، لتشكيل الحكومة ، فرفض ، واضطررنا الى تطبيق الحكم المباشر .

في ربيع وصيف ١٩٢٦ ، جرّب المفوض دي جوفنيل ، ثانية ، ان يتفاهم مع الوطنيين . وكان رئيس الحكومة رجلاً معتدلا ، فسمح له بالتعاون مع ثلاثة من الوطنيين المتطرفين الذين بدأوا حالا ، لتنفيذ منهج محض استقلالي ، فاعتقلوا ونفوا. وذهب المسيو دي جوفنيل ، وخلفه المسيو بونسو M. Ponsot الذي حمل معه - كجميع المفوضين السامين - آمالا وصلاحيات واسعة وفيما هو منهمك بالاستشارات ، كان الداماد يحكم دون برلمان .

وفي عام ١٩٢٨ ، هدأت الخواطر ، فابدل الداماد المتمسك بالمعتدلين ، بالشيخ تاج الدين ، الذي اقسم ان يتفق مع فرنسا ، واعلن « **ان منفعة البلاد الواقعة تحت الانتداب ، هي ان تتحرر من فكرة الانفصال** » . وهكذا أعلن العفو العام ، وبدأت الانتخابات ، فنجح المعتدلون باكثريتهم ، لكن المتطرفين كانوا يحركون المعتدلين دائماً ، وفي كل مكان . فأيد البرلمان دستوراً جديداً لا يحترم السلطة المنتدبة ، مما اضطر المفوض السامي ، ان يؤجل اجتماع البرلمان ثلاثة اشهر ، ثم يمدده لثلاثة اخرى ، ثم يعلق الدستور . ويبدأ استشاراته من جديد .

كان عام ١٩٢٩ مخصصاً لتهيئة الدستور ، الذي نشر عام ١٩٣٠ . انه الدستور الذي ايده الوطنيون ، واحترموا فيه السلطة المنتدبة . اما الدروز والعلويون ، فكان لهم وضع خاص ، ودستور خاص . هكذا وحّدت سوريا ، دون المقاطعتين المذكورتين . لكن « الجزيرة » ، ستضم اليها في ما بعد ، وذلك غبّ مذابح النصارى في العراق ، وثورة ١٩٣٢ . فاضطررنا ان نجري انتخابات جديدة اواخر ١٩٣١ واوائل ١٩٣٢ ؛ انتهت بهدوء في جميع البلاد ، اذا استثنينا بعض حوادث في دمشق . لقد نجح الوطنيون ، لكنهم كانوا دائماً في اتجاهين . الاوتوقراطيون ، والتقدميون . غير ان المعتدلين ، كالعادة ، موجهين من قبل المتطرفين ؛ مما جعل المجلس النيابي يرفض المعاهدة التي تقدم بها المفوض السامي المسيو دي مارتيل . لقد كانت المعاهدة ، والحق يقال ، مبهمة في نقاطها الرئيسية ، فاضطر المفوض السامي الى ان يستعيدها دون عناء وعادت المشادة الى حالتها : اغلاق البرلمان ، والعودة الى الحكم الفردي برئاسة الشيخ تاج الدين .

انه لمن المؤلم حقاً ان ندخل بالتفاصيل في وصف الصراع السياسي اثناء هذه الحقبة ، دون ان ينتج عن شيء ، بل انه زاد الفوضى ، وغذّى سوء التفاهم . وفي عام ١٩٣٦ ، ازكت حوادث الحبشة ، نار الحمية في الشعور الوطني ، وخلقت حقداً وكراهية ضد مزاحمي التجارة السورية ، فازداد الهيجان ، واستقال الشيخ تاج الدين ، واعلن العصيان في دمشق وحلب ودير الزور

واغلقت المدن اسواقها . ولاجل الخروج من المأزق الحرج ، اوعزت الحكومة الفرنسية الى المفوض الســـامي ، ان يدخل في مفاوضات مع الزعماء الوطنيين ، الذين اخرجوا من السجن ، للتفاوض معهم . واسفرت المحادثات عن معاهدة فينو (Viénot) التي سميت باسم واضع بنودها .

لم تكن هذه المعاهدة كاملة ، لانها لم تأتِ ، إلا بشكل مبهم على ذكر القضايا الهامة ، كوضع الاقليات ، وقانون البلديات ، والضمانات العسكرية ، التي تركت ، على ان تتبادل فيها وجهات النظر بالمستقبل . واعطيت المعاهدة فرصة سنتين لتوضع موضع التنفيذ . لكن المعاهدة، رغم علاتها، قد هدأت الحال، واستقبلت في دمشق بغبطة .ونشرتها الوزارة الجديدة بجميع بنودها ،واعلن رئيس الجمهورية في خطاب له « ان ساعة التحرر قد دنت » ، وقامت تظاهرات الصداقة وعرفان الجميل نحو فرنسا .

اما في باريس ، فلم تقدم المعاهدة الى البرلمان لابرامها ، وذلك اثر حملة صحفية ، اتهمت فيها الحكومة باهمال مصالحنا وحقوقنا . فانقلب الوضع في دمشق ، وعقد مجلس الوزراء جلسة حامية ،لام فيها الاقليات التي كانت تحاول ، احياناً ، القيام بحركات تمرد . اما الذين يعتقدون ان المعاهدة لا تضر بمصالحنا ، كانوا يرتكزون

بثقتهم على تلك الاقليات ، ليست اقليات النصارى فحسب (١) - لانهم مفرقون لا يشكلون اية قوة، اللهم الا في الجزيرة،حيث يؤلفون تكتلا قويا - بل على الاقليات القومية كالدروز والعلويين الحاقدين على دمشق . إن هذه الاقليات نفسها ، لدى شعورها بان قواتنا تسندها ، راحت تزيد مركزها قوة وثباتاً ، مما جعل الوطنيين يتذمرون منهم لانهم اصبحوا يشكلون خطراً على الوحدة السورية . وكأن ذلك الموقف الحرج لا يكفي ، حتى برزت ، فجأة ، قضية اسكندرون .

لقد خصصت معاهدة انقره ١٩٢١ مادة تحفظ فيها مصالح الاتراك في سنجق اسكندرون . وكان يقطن هذه المنطقة البعيدة عن دمشق ، شعوب مختلفة الجنسيات : من الاتراك ويزيد عددهم ٥٠ ٪ ، ومن الارمن والسوريين . وكانت في وضع شبه مستقل ، لكنها تابعة لدمشق . وكان الاتراك يطمعون فيها منذ زمن بعيد . فتعللوا بالمعاهدة الفرنسية - السورية التي اقامت فرنسا منتدبة على سوريا ، وكانت حجتهم : ضمانات كافية تجعل للسنجق دستوراً خاصاً . فرفعت القضية الى « عصبة الامم » ، التي قررت

(١) يبلغ عدد النصارى اربعمائة الف نسمه . والدروز ستون الفا والعلويين ثلاثمائة الف ، مقابل مليون وستمائة الف مسلم سني ، وبضع عشرات الالوف من المسلمين الشيعة ، وخمس وعشرون الف اسماعيلي ، والفي يزيدي ، ومئة الف من البدو الرحل (المؤلف)

- كالعادة - بعثة من الخبراء ، ودستوراً موقتاً ، وأن يجري استفتاء شعبي . ولكي تنفذ هذه القرارات ، قررت فرنسا وتركيا ان يحافظ على السنجق قوات من الفرنسيين والاتراك . فاجتمع البرلمان ، وقررت الاكثرية التركية ان تتحد مع تركيا . وفي ٢٣ تموز انتهى كل شيء : تنازلت فرنسا عن السنجق بكل طيبة خاطر الى تركيا .

إن هذا العمل ، ايقظ في سوريا ، مظاهرات صاخبة ، قامت ضدنا . لان سوريا اذا لم تكن تعير سنجق اسكندرون اهمية خاصة ؛ فخسارته حساسة جداً ، ولا سيما بالنسبة الى حلب ؛ لانه يشكل منفذاً طبيعياً لها . لقد صارحنا القوم اننا تنازلنا ، متأسفين عن السنجق لتركيا ، من اجل حماية مصالح الدول العظمى ، التي دفعت اسكندرون ثمناً لعقد تحالف مع تركيا (المعاهدة الانكليزية - التركية ١٢ نوار عام ١٩٣٩ والمعاهدة الفرنسية التركية ٢٣ تموز ، والمعاهدة الانكليزية - الفرنسية - التركية ١٩ تشرين اول)

في هذه الاجواء المضطربة ، فتحت مفاوضات جديدة بين الحكومتين الفرنسية والسورية ، وكانت النقاط الرئيسية فيها ، ان يؤلف جيش سوري قوي تدربه بعثة فرنسية ، وان يقوم نظام لامركزي لادارة البلاد ، ويهيأ قانون خاص للطوائف . بعد ان ذهب جميل مردم بك رئيس الحكومة السورية الى باريس عام ١٩٣٨ ، درست هذه النقاط وبحثت بتفاهم متبادل ، واسفرت عن اعلان معاهدة بينه وبين وزير الخارجية الفرنسية السيد جورج

يونيه . فابرق مردم بك الى الحكومة السورية يعلنها عودته باخبار سارة. وما كاد يصل البلاد،حتى تلقى برقية من الحكومة الفرنسية تعلن فيه اسفها لعدم تمكنها من ابرام المعاهدة في المجلس النيابي . فعادت الحال الى وضعها السابق . واستقال مردم ، ولحق به الوزراء ، واصبح البرلمان السوري في حالة هياج شديد ؛ فاضطر المسيو بيو (M. G. Puaux) المفوض السامي السابع ، ان يحل المجلس ، ومنح جبل الدروز وجبل العلويين انفصالاً خاصاً في الادارة والعدلية والموازنة ، ولم يبقَ لدمشق اي نوع من الوصاية عليهما . فاستقال رئيس الجمهورية ، واسندت مقاليد الدولة الى المديرين العامين ، الذين اصبحوا موظفين يتلقون الاوامر من القوى المنتدبة فينفذونها ؛ وهكذا عاد الهدوء . وفي بحر هذه السنة ذاتها ١٩٣٩ ، عادت الحال الى ما كانت عليها حدة واضطرابات ، اوقعتنا في مآزق حرجة ، واضطرتنا ان نحتّم على الكثيرين الاقامة والمراقبة ، وان نبعث بغيرهم الى السجن .

في هذه الفترة ، اشتعلت نيران الحرب،فانقلب الوضع لصالحنا، واعلن زعماء الاحزاب السياسية ولاءهم لفرنسا ، وعرضوا عليها خدماتهم. وقد يكون موقفهم هذا ، ليغتنموا الفرصة ويحسنوا — بالاتفاق مع جميع السوريين — وضع بلادهم .

مرت الايام ودخل عام ١٩٤٠ . فكان عاماً فاصلاً ، وخسارة فرصة ، كان بالامكان انتهازها . ذلك ان الجنرال ميتلهوزر (Mittelhauser) اراد ان يجمع شمل فرنسا الحرة ، فاسقط بيديه، وانتصرت السياسة المعاكسة ، واصبحت فرنسا الرسمية في سوريا

فرنسا المنهزمة . واذا كانت فرنسا الاخرى (الحرة) ستعود الى سوريا ، فان ذلك سيكون ، اضطرارياً ، مع الانكليز الذين سيدخلونها معنا .

بعد فترة من الاضطرابات السياسية، والاضطرابات الاقتصادية، بعثت حكومة فيشي (Vichy) بالجنرال دانز (Dentz) مفوضاً جديداً (١) ؛ فالقى ، لدى وصوله ، خطبة اصبحت تقليدية معروفة ؛ لكن السوريين لم يؤمنوا بها قط. فالغى مجلس المديرين، وشكل حكومة شرعية ، لها مجلس استشاري يمثل الحياة السياسية، والثقافية ، والاقتصادية ، ومستشار دولة . فوضع التصميم ، بشكل يحفظ سعادة الشعب السوري ، وينمي اقتصادياته « **لان الظروف لم تكن تسمح ، آنذاك ، لتطلق للسوريين اليد في تدبير امور دولتهم** » .

غير ان حوادث مؤسفة ومفجعة ، اوقفت تحقيق اي جزء من الوعود . فان حكومة فيشي سمحت ، ربيع ١٩٤١ ، لقوى « اللفتواف (Luftuaffe) ان تهبط في المطارات السورية ، لمساعدة عصيان رشيد عالي بالعراق . وفوق هذا ، فقد هيأت جيوشاً لتسند العصاة . فكان الجواب بديهياً وسريعاً . ذلك ان فرنسا

«١» كانت فيشي بعثت قبله بالسيد شياب (M. Chiappe) فاختفى في البحر المتوسط ، قبل ان يتسلم مركز عمله .

الحرة تدعمها القوات البريطانية ، هاجمت البلاد السورية . وكانت اتفاقية ليتلتون ـ دي غول ، قد اعترفت بوضعنا الممتاز في سوريا ولبنان . وبعد بضعة اسابيع من القتال ، وقعت الهدنة في عكا ، ووضع حد للصراع ، وحلت فرنسا الحرة محل حكومة فيشي في البلدين تحت الانتداب .

وفي ٢٧ ايلول ، وفي ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩٤١ ، اعلن الجنرال كاترو Catroux ، **« ان بلدي سوريا ولبنان ، يتمتعان الآن ، بامتياز وصلاحيات الدولتين المستقلتين السيدتين ؛ وان القيود الوحيدة ، التي تمنع هذه الحقوق تدفرضتها الحرب الحاضرة »**

لم يكن بالامكان تجنب هذه القيود . ولكن هذه الوعود المرفقة بالحيطة ، قد زعزعت الوضع ، وجعلت السوريين في حال يائسة ، لانهم كانوا يريدون الاستقلال ذاته ، لا وعداً بالاستقلال . وعاد سوء التفاهم الى ما كان عليه ، لكنهم طيبّوا انفسهم بالحلول الوقتية ولم نجد في سوريا ، سوى الشيخ تاج الدين الذي لم يعد يمثل شيئاً يستحق الذكر . واجريت انتخابات عام ١٩٤٣ ، اسفرت – كالسابق – عن مجلس وطني . والشيء الجديد المهم هو ان المجلس اللبناني ، كان يضم اكثرية مناوئة لفرنسا

وبدأنا ننفذ ، شيئاً فشيئاً ، الاتفاق الذي وقعه الجنرال كاترو في اواخر كانون الاول . فسلمنا الحكومتين السورية واللبنانية – مطلع عام ١٩٤٥ – قسماً كبيراً من الصلاحيات المدنية ، وعملنا – قبل بضعة اسابيع من ازمة ايار – على قبول ممثلي سوريا

ولبنان في مؤتمر سان فرنسيسكو . وفي اوائل ايار ، قدم بيروت الجنرال بينيه (Beynet) ممثلاً عن فرنسا ، حاملاً مذكرة تعلن استقلال سوريا ولبنان ، وفيها شروط عقد اتفاقيات اقتصادية وثقافية ، والحصول على مطار في سوريا ، وقاعدة بحرية في لبنان وفيها ايضاً أن الجيوش الخاصة ، تظل تحت امرة القيادة الفرنسية حتى تتألف قيادة وطنية . ولاجل هذا فان الجيوش بحاجة الى ثكنات . غير أن شروطاً وحججاً مثل هذه ، قد حطمت القسم الذي ينص على الاستقلال .

ولسوء الصدف ، ان فرقة سنغالية نزلت البلاد – ولا يهمنا ، انزلت عدداً ، او لتحل محل فرقة اخرى – فحرّكت شعور الذين يفتشون عن حجة يتذرعون بها ضد فرنسا ، التي لم يكن لها – بنظرهم – مكانة كبرى يومئذ ؛ وكانوا مدعومين بقوى تسندهم والتتمة معروفة . ففي سوريا ثارت فتن دموية ، نكّل فيها بالفرنسيين ، ومنهم من ذبح بشراسة ؛ واغلقت مدارسنا ومستشفياتنا ، وطرد اساتذتنا وكهنتنا ، اذلاء مهانين . وكانت الاهانة الكبرى عندما ارادت فرنسا ان تعيد النظام ، فجردت جيوشنا من السلاح ، وحلت الجيوش الانكليزية محلها . فتوترت علاقاتنا مع انكلترا التي عملت بكل ما في وسعها لتسميم الجو ، الذي لم يلبث ان صفا بسرعة . فوقع اتفاق فرنسي – بريطاني ؛ كان الهدف منه ان يحدد جلاء الجيوش الفرنسية والبريطانية عن سوريا ولبنان . فغادر بيروت في الثالث والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٤٦ ، آخر جندي فرنسي .

ان صبغة الانتداب ، بحد ذاتها ، كانت تظهر جذابة . وهي التي سببت – كما قلنا سابقاً – سوء التفاهم الذي حصل عند جلائنا عن سوريا ولبنـان . فالصعوبات الاولى التي اعترضتنا ، كانت متأتية من عدم صبر ذلك الشعب الفتي ، الذي يريد ان يتحرر من الوصاية ، والذي اصيب بصدمة في كرامته ، اكثر من ان يتضايق او يملّ منا . ومع ذلك فلا يمكن ان ينكر على الانتداب ، قيامه بكثير من الاعمال الحسنة ، ولا سيما في الحقل الاقتصادي . وقد نكون ، من جهتنا ، علقنا اهمية كبرى للمحافظة على وجودنا ، ولو شكلياً ، بطريقة تتلاءم مع اليوم الذي دخلنا فيه . وهذا ما كان يتطلبُ اكثر مرونة ، وكان اكثر الفرنسيين يعتقدون ان «وجودنا الشكلي» ، الشيء الوحيد الذي يمكنه ان يحافظ على مصالحنا . لقد كان بامكاننا ان ندافع عن تضحياتنا بالرجال والاموال ، وان نكمل ، في الوقت ذاته ، مهمتنا . غير ان تضحياتنا كانت تضطرنا الا نعتمد على الصدق ، ونجازف ، في تجربة خطرة ، بما كسبناه بعد جهد وعناء كبيرين . وليس المقصود ، طبعاً ، اننا سنتخلى عن مهمتنا التاريخية في حماية الاقليات المسيحية ، وعن تأثيرنا على الاوساط الاسلامية ، فان كل غنم اوخسارة في الشرق ، له تأثيره في افريقيا الشمالية . وليس المقصود ايضاً ، اننا نتنازل عن مصالحنا الستراتيجية والاقتصادية ؛ ولكن الوصاية والاحتلال لا يخلقان ، عادة الشروط الملائمة لجذب القلوب والعواطف ، ولا يحافظان على المصالح المادية ، كما انه كان ضرورياً ان نختار الوقت المناسب للعمل دون ان ندع انفسنا نتنازل بسهولة عن امتيازاتنا ؛ ذلك

التنازل الذي حدا بنا الى ترك البلاد نهائياً. واخيراً، فمن المؤكد ان النظام الديمقراطي الذي كان قائماً في سوريا، قد عقد اعمالنا، قبل الاوان. ومثل العراق، يؤكد ان النظام الملكي قد سهل مهمة انكلترا.

ما كاد سوريا ولبنان ان يستقلا، حيث بدت امامهما عمليات صعبة الحل. ان فرنسا تشعر انهما توصلا الى نجاحات لا جدال فيها غير انه بقي امامها قضايا كثيرة وهامة. فالثروات الطبيعية، لا تكفي جميع احتياجات البلاد، والدراسات الاوليه في الجزيرة، حيث يأملون دائماً ان يجدوا فيها النفط، لم تسفر بعد عن شيء. وبالمقابل، فان خط الانابيب الذي سيمد النفط من المملكة العربية السعودية، عبر سوريا، الى مرفأ لبناني - وهو مدار بحث الآن (١) - سيرفع، ولا شك، دخل البلدين

هنالك مسألة اخرى تتعلق بالمركز الذي سيحتله سوريا ولبنان في العالم العربي، وخاصة موقفهما، وجهاً لوجه، من جيرانهما. ان سوريا ولبنان، قد غنما على حساب السياسة العربية، وقد التحقا، راضيين بالجامعة العربية. غير ان هنالك جبهات داخل الجامعة وخارجها، وتقارب خطط سياسية. حتى ان مشاريع اتحادية، على الجامعة ان تبت فيها. وبكلمة واحدة، فان سوريا ولبنان يجابهان مشروع «سوريا الكبرى».

---

(١) حينما كتب المؤلف كتابه هذا لم تكن اتفاقية التابلاين قد عقدت بعد (المترجم)

ففي سوريا ، حيث الاكثرية المطلقة من المسلمين ؛ نجـد كل مسلم يحبذ، دينياً ، سوريا الكبرى . اما سكان منطقة حلب، فانهم يأملون ، فوق ذلك ، بسوريا الكبرى ، تستعيد صلاحياتها مع منطقة اسكندرون. كما يجب ان ننتبه الى قضية اخرى جديدة، هي ان في مدن دمشق وحمص وحماه وحلب ، حركة ديموقراطية في اوج نشاطها . فالاوساط الجمهورية ذات الميول الشيوعية ، تعارض بكل قواهـا ، اتحاد سوريا الكبرى ، على رأسها الملك عبدالله ، الذي يمثـل ، بنظرهم ، نظاماً غير مرغوب فيه . واذا وجدت سوريا الكبرى ، فمـن الضروري ، اذن ، ان تكون جمهورية . اما موقف الدروز والعلويين ، وهم اقلية معروفـة في سوريا ، متحدة مع دمشق ، فهو موقف غير معروف وغـير واضح من هذه القضية ؛ والنصارى هم قليلو العـدد وموزعون كثيراً ، فليس لهم اهمية عملية . اما الاوساط الحاكمـة فهي – كأكثر بلدان الشرق – تشكل عدداً صغيراً مـن العائلات العريقة ، تخاف ان تحرم حقهـا في الحكم ؛ وان تقضي سوريا الكبرى على مصلحة « سوريا الصغرى » . لذلك فالاوساط الحاكمة في سوريا تفضل تكبير سوريا الحاضرة ،بضم الاراضي التي اقتطعت منها ، فجعلت من جبل لبنان ، لبنان الكبير .

اما في لبنان ، فان الوضع ، يبدو ، حتى الان معقداً . فاذا وضعت قضية الاستقلال على بساط البحث ، فليس بامكان النصارى الا ان يتحدوا مع المسلمين . انهم يستعيدون الثقة الان . لذلك فان خطر «سوريا الكبرى» بالنسبة اليهم ، هو خطر مزدوج فاذا

وضعت قضية الاستقلال على بساط البحث، فليس بامكان النصارى الا ان يتحدوا مع المسلمين . انهم يستعيدون الثقة الان . لذلك فان خطر « سوريا الكبرى » بالنسبة اليهم ، هو خطر مزدوج ، فاذا ايدوا هذا المشروع ، اصبحوا ، دون شك ، اقلية ضعيفة غارقة بين الكتلة الاسلامية . واذا تم مشروع « سوريا الكبرى » دونهم ، مع ضم المقاطعات ذات الاكثرية الاسلامية ، فان لبنان لا يعد بامكانه ان يعيش ؛ لانه ينتج من هذه المقاطعات ، اكبر كمية من مواده الضرورية . ذلك انه حينما طرحت على التصويت ، في ايار ١٩٢٦ ، قضية تقرير الحاق المقاطعات التي جعلت من جبل لبنان ، لبنان الكبير ، اقترع النواب النصارى وعددهم اربعة عشر نائباً ، مع القرار ، وعارضهم النواب المسلمون ، وعددهم احد عشر نائباً ، تغيب منهم ثلاثة . ان المسلمين اليوم ، هم اكثر تفرقاً من قبل . فالسنيون في لبنان ، مثلهم في سوريا ، يؤيدون الوحدة العربية ، ولأجل ذلك فانهم يفكرون ان يبدأوا بالاتحاد مع سوريا . اما الشيعيون ، وهم يؤلفون طائفة لها وزنها ، فانهم يخافون ان يذوب كيانهم في دولة « سوريا الكبرى » . لذلك فهم يفضلون ، على العموم ، الوضع الحاضر . وفوق ذلك ، يجب ان نذكر ، زيادة عن سوريا ، الاحزاب الديمقراطية ، ولا سيما الحزب الشيوعي الذي يشكل نواة لا يستهان بها ، والذي يرفض رفضاً باتاً ، اتحاداً مع « سوريا الكبرى » بنظام اقطاعي .

إن اكثرية اللبنانيين ، اذن ، تميل الى المحافظة على لبنان الحالي وعلى « **شخصيته** » **كدولة تسير مع التطور** ، حيث يمكن للثقافة

المسيحية والاسلامية، مع الميول الديمقراطية، ان تتذاوب وتتآلف.
من هذه الفكرة ، انفرد مجلس ١٩٤٧ - بعد ان فتح الملك
عبدالله باب المفاوضات - ورفض باقتراع ، عبر فيه رفضه التام
لمشروع سوريا الكبرى . ان لبنان انتخب في ايار ١٩٤٧ مجلساً
جديداً ، كان فيه حزب الحكومة « العروبي » او على الاقل ، ذو
الميول العربية ، يشكل الاكثرية . ولكن حزب المعارضة
المعروف خصوصاً بالموارنة - اهم طائفة مسيحية - كان قوياً
بشكل يمكن ان نحسب له حساباً . لذلك لا يمكن الا ان يكون
النصر - نهائياً - حليف فرنسا في لبنان .

البلاد تحت الانتداب الانكليزي

١) العراق او انبعاث فيصل

ان العراق هو ، بالاساس ، الواديُ الاسفل لدجلة والفرات
وبلاد ما بين النهرين ، مع قطعة من الصحراء غرباً ، تشكل مع
شرقي الاردن وفلسطين ، خط مواصلات من خليج العجم حتى
البحر الابيض المتوسط ، دون ان يمر ببلاد الانتداب الفرنسي
والعربية السعودية . ان العراق هو المحطة الطبيعية الواقعة على

خط الطيران بين قواعد البحر الابيض والهند .

ان البلاد فقيرة ، رغم امكانيات رفع مستواها ، من السهل المؤلف من رواسب النهرين . فقد كان يعيش فيها ، في العصور القديمة ، اكثر من عشرين مليون نسمة ، برخاء . اما اليوم ، فلا تكاد تكفي سكانها الحاليين ، رغم جهود الحكومة لري الاراضي الجدباء ، ولا سيما في منطقة البصرة . وبالمقابل فان العراق يملك تحت ارضه ثروة جديدة ، هي نفط الموصل – كركوك ، الذي يعود على الدولة بريع سنوي يقدر بحوالي المليون دينار .

يبلغ عدد سكان العراق اليوم ، ثلاث ملايين نسمة . اكثر من نصفهم ، من الوجهة الدينية ، شيعيون ، يقطنون – على الغالب – المنطقة الواطئة ، ولهم فيها مدنهم المقدسة : كربلاء النجف والكوفة . والسنيون يزيد عددهم على المليون نسمة . اما اليهود والنصارى ، فيبلغ عدد كل طائفة منهما ، المئة الف تقريباً . وفي الموصل نجد بعض اليزيديين ، الذين يعبدون الشيطان .

اما من الناحية العنصرية ،ففي شمال العراق حوالي الستمائةالف من السنيين الاكراد . اما سكان المناطق الوسطى والسفلى ، فهم خليط من العرب والفرس . اذن ، ليس في العراق وحدة طائفية ولا وحدة عنصرية . واذا اتينا اخيراً على الناحية الاجتماعية وجدنا ان العراق لا يزال يعيش في نظام اقطاعي . فان عدة مشايخ يملكون اربعين الف هكتار ، بريع سنوي يبلغ (٢٥٠) الف دولار . كما وأن بضع عائلات تسيطر على الحكم والثروات . لكن تياراً ديمقراطياً بدأ يحرك التكتل الشعبي .

بامكاننا ان نقول انه لم يكن قبل حرب ١٩١٤ – ١٨ اي شعور وطني . وكان هذا الشعور يظهر بالجهد في صحيفة « النادي الوطني » ، وفي صحيفة وطنية اخرى ، كانتا تظهران في بغداد ولكن العهود التي قطعت للحسين ، اوائل الهدنة ، واعلن فيها الحلفاء قيام دولة اوعدة دول عربية ، خلقت رغبات جديدة في الحرية والاستقلال ، ونمت بسرعة . لقد فكرت بريطانيا اول عهدها بالعراق ، ان تجعل منه مملكتين خاضعتين لسلطة ولدي الحسين الاصغرين . فاستفتت السكان ؛ فرفض اكراد الموصل ان يكون على رأسهم امير عربي . واعلنت بغداد احد ابناء الحسين . اما البصرة ففضلت التعلق بانكلترا . وهذه نتيجة النزعات المتعددة

في مطلع عام ١٩٢٠ زادت الاضطرابات ، وتألفت لجنة من ضباط الجيش قدمت التاج لعبدالله . غير ان العراقيين ما علموا ، في اواخر نيسان من العام ذاته ، ان العراق وضع تحت الانتداب البريطاني ، حتى بدأوا بالانفجارات والفتن . وقتل وذبح ضباط انكليز في شوارع بغداد . وعمت الثورة في الصحراء ، مما اقلق بال انكلترا ، فاستدعت المفوض المدني الذي كان في العراق اول عهد الاحتلال ، وكان قبل ذلك مبعوثاً في طهران . انه السير برسي كوكس Percy Cox . ويعود الفضل الى حنكة ودراية هذا الرجل ، ومعرفته التامة في البلاد . فقد تمكن بوقت قصير ان يخمد العصيان . فشكل حكومة وقتية بدأت عملها في ٢٧ تشرين الاول . فعاد الهدوء نسبياً . غير ان بضعة وزراء ، على رأسهم

طالب باشا ، اتخذوا موقفاً معادياً للانتداب . فنفي طالب باشا ، ووافقت الحكومة العراقية على التدابير الانكليزية ، التي منحت فيصلا تاج العراق .

كانت انكلترا قد فكرت اولا برشيد عالي ، الذي اصبح فيما بعد ، قائد ثورة ١٩٤١ ، وسليل الشيخ عبد القادر الكيلاني ، الذي يقدّس السنيون مقامه الواقع في بغداد . لكنّ الحل الذي قضى بتنصيب فيصل ، كان اكثر منفعة لها . ذلك انها بجعلها ولد الحسين ملكاً على العراق ، تكون قد نفذت وعودها للاب ، ووضعت تحت تصرفها حكومة امينة .

قبل فيصل بالانتداب الانكليزي ، وعلا عرش العراق في آب سنة ١٩٢١ . فكان استقباله فاتراً ؛ لان العراقيين كانوا يرفضون ان يكون على رأس بلادهم ملك عربي من الحجاز . وابتعد عنه الشيعيون لانه سني . وخلافاً للقاعدة ، اصبح ابن حامي المدن المقدسة مكة والمدينة ، حامياً للمدن المقدسة الشيعية . لكنّ المتطرفين ابوا ان يغفروا له قبوله بالانتداب . غير ان فيصلا ، تمكن بمهارته الفائقة ان يستغل الظروف ، فطلب الى انكلترا صلاحيات واسعة ، وحجته جمع شمل المعارضين ، فكان له ما اراد . وهكذا تمكن من السيطرة الكاملة على البلاد .

ولما شعر ان بريطانيا تدعمه ، وقّع عام ١٩٢٢ مع ابن السعود ، عدوّه الوراثي ، اتفاقيات **المحمرة وعقير** ، فوضعت حداً للمشاكل التي كانت تنجم عن البدو الرحل ، وحددت قضية تنقلاتهم . لكنّ الوضع تغير واشتد ، حينما طرد ابن السعود الحسين من الحجاز .

الا ان تدخلات السير برسي كوكس الحكيمة ، رتبت القضية ، وعقدت اتفاقية على الحدود في البحراء، ثم عقبها سنة ١٩٣٠ اجتماع بين ابن السعود وفيصل ، مهدا فيه لمفاهدة الصداقة التي وقعت في السنة التالية .

اما من ناحية تركيا ، فكان الوضع اكثر سهولة . ذلك ان تركيا ، بعد انتصارها على اليونان ، وتقدمها ضد الفرنسيين ، الحت بطلب منطقة الموصل . ويعود الفضل الى انكلترا – التي تكون دائماً اكثر المستفيدين – بتنازل تركيا في لوزان (Lausanne) عن الاراضي التي تبغيها. وفي ٥ حزيران عام ١٩٢٦ وقعت معاهدة الحدود بين العراق وتركيا ، ابقت العراق سيداً على املاكه .

بعد مدة ، تنظمت العناصر الداخلية . وفي آذار سنة ١٩٢٤ قررت المعارضة الشيعية الاجتماع عنوة ، وكان المجلس قد ادرك ذلك منذ تشرين الاول ، فبدأ عمله . لكن الملك فيصل ، الذي ما فتىء يعمل مع الانكليز، توّج عمله بحصوله ، في ٣٠ تموز ١٩٢٠ – كنتيجة لمواقفه الطيبة – على الغاء الانتداب ، وتوقيع معاهدة مع انكلترا ، حافظت – في الظاهر على الاقل – على استقلال العراق . وفي عام ١٩٣٢ قبل العراق في عصبة الامم .

لقد حددت المعاهدة الانكليزية – العراقية ، بعد استهلال يؤكد – حسب العادة – حق العراق في الحرية والاستقلال **« أن جميع قضايا السياسة الخارجية ، يجب ان يتبادل فيها الطرفان وجهات النظر ، ولايحق لاي فريق ان يعمل دون موافقة الآخر»**

اما في ما يختص بالعراق ، فعليه : « **ان يقدم جميع التسهيلات لاستعمال الخطوط الحديدية ، والانهار ، والمرافىء ، والمطارات وجميع وسائل النقل** » . ولكي تكون بريطانيا اكثر ضمانة ، فقد سمح لها ان تستعمل ، عسكريا ، بعض المطارات . ومما لا شك فيه أن هذه المعاهدة كانت نجاحاً بالنسبة ، الى فيصل ، الذي ثبت مركزه نهائياً . غير ان الكلدانيين والاشوريين فقط ، خافوا على انفسهم ، وهم اقلية مسيحيه ، ان تساء معاملتهم في مملكة عربية ، فجربوا ان يقوموا بحركات شغب ، لكنهم زجروا بشدة .

في السنة التالية ١٩٣٣ توفي فيصل فجأة . ولم يتمكن ابنه ، وليس له من الصلاحيات ما لابيه ، ان يوافق ، كما وافق والده ، بين النزعة الوطنية ، والنزعة الانكليزية . فتجابهت النزعتان بعنف وتعاقبت الازمـــات الوزارية بسرعة واضطراب . وتكاثرت اغتيالات رجال السياسة ، وفي عام ١٩٣٥ اشتعلت ثورة شيعية ، ضرجت بلاد العراق بالدماء . وعندما قتل غازي ١٩٣٩ بحادث سيارة - وكان ابنه لا يزال طفلاً - اسندت الوصاية الى خاله عبد الاله ، فانتصرت الميول الانكليزية بواسطة الوزير الاول نوري السيد الذي قطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا ، غب اشتعال الحرب ، فيما كان يعلن حياد العراق .

لقد كانت قضية حياد العراق ، وجهود بريطانيا لاخراجه عن حياده ، السبب في جر البلدين الى الوقيعة ، او على الاقل ، الحجة التي تذرعت بها بريطانيا . فاذا كانت الوقيعة حادة بين الطرفين ، فان مسألة الحياد ، كانت مسألة رمزية فقط ؛ ذلك انها نوايا العراق

في مطالبته بالاستقلال .

ان انكلترا كانت اشغلت عسكرياً ، بموجب المعاهدة ، مطارات الحبانية والشباد ، واستعملت ، لنقل جيوشها من الهند الى فلسطين ، الطرقات ، والخطوط الحديدية ، والمرافىء العراقية . وقد طالبت العراق ، فوق ذلك ، بان يقطع علاقاته الدبلوماسية مع ايطاليا . ومراقبة الجيش العراقي ، واحتلال الاراضي الشمالي ، لمهاجمة سوريا . إن هذه المطالب ، كانت من صلب المعاهدة ، ومع ذلك ، كانت سبباً مباشراً للوقيعة .

اشتد فجأة ساعد المعارضة التي تناوىء بريطانيا ، يشجعها على ذلك المحور ، ولا سيما في الاوساط العسكرية . وفي نيسان سنة ١٩٤١ ، اعلن رشيد عالي الكيلاني ، الوطني المتهوس ، وزعيم حزب المعارضة «الاخاء» حركته فهرب الوصي على متن طائرة انكليزية وعين وصي جديد هو الامير شرف ابن عم فيصل . واستولى على الحكم ، الكيلاني . وكان الحاكم الحقيقي رشيد عالي «الزعيم» ، الذي قام باتفاقه مع قوى المحور ، باعلان نظام حكم في البلاد ، يشابه الحكم الفاشستي . فجربت انكلترا ان تتفاوض معه ، لكنه رفض وهاجم ، في اول ايار ، مطار الحبانية ، والقاعدة البريطانية فيها .

لم تكن قوى العراق بقسميها ، فيلق الخيالة ، وبعض اسراب الطائرات ، ودون مساعدة خارجية ، بقادرة على مجابهة القوى البريطانية ، رغم أن قوى هذه الاخيرة ، كانت منهمكة وموزعة في اليونان وكريت وليبيا . فعلى من يجب الاتكال ؟ ان المحور

قد ارسل من جهته ، بضعة اسراب من الفتواف ، كانت حصلت على مأذونية للهبوط في سوريا ، لتساعد العراق . لكنها لم تكن كافية للحصول على نتائج هامة . اما الاسلحة التي سمحت « فيشي » (Vichy) بدخولها المستودعات السورية ، فلم يكن لها الوقت الكافي للوصول .

أما من جهة جيرانه، فلم يكن العراق ينتظر مساعدة تتعدى المعاهدات التي وقعها معهم . وكان قد وقع مع نجد ، في ٧ نيسان سنة ١٩٣١ بمكة بمعاهدة جددت في بغداد (٢ نيسان ١٩٣٦) . ان هذه المعاهدة وعنوانها « ميثاق اخوة عربية وحلف » ، وضعت في نصوصها ، حداً للخصام بين البيت الهاشمي والبيت السعودي . وبعد ان وضعت ، في مقدمة الميثاق ، شكل العلاقات الاسلامية والوحدة العربية ، اعلنت استعداد كل من الطرفين لعدم التدخل في القضايا الداخلية للبلدين ، ووقف الخصام بينهما ، واحترام الحدود ، ورفع مستوى الثقافة الاسلامية ، كما ادركت تبادل وجهات النظر بين الطرفين على جميع القضايا الاسلامية ، والوحدة العربية . اما في مايختص بالسياسة الخارجية ، فقد نص الميثاق - في حال وقوع معركة ما - ان يتفاهم الطرفان على سياسة واحدة ، واتجاه واحد . ومما يجب ذكره هو ان الميثاق منع العراق من اتخاذ اي موقف يضر بالمصالح الانكليزية .

إن العراق الواقع على تخوم البلاد العربية ، شعر بميل نحو جيرانه ، تركيا وايران ، وكان مصطفى كمال والشاه بهلوي قد جددا قوات بلادهما . ومنذ ١٩٢١ كانت تركيا وايران وافغنستان ،

تجرب ان تستند الى روسيا. فاتفقت فيما بينهـــا ، وربطت عجلاتها بالعجلة الروسية، واتخذت نظاماً سياسياً متجهاً نحو موسكو. إن هذه الحالة لا يمكنها ان تجعل انكلترا مكتوفة اليدين . فاغتنمت فرصة تحسين علاقاتها مع تركيا . وتفاوضت "لادخال العراق معها ، فتمكنت بذلك، ان تقيم توازناً مع النفوذ الروسي وما سوّيت قضايا الحدود بين العراق وتركيا في معاهده ٤ تموز سنة ١٩٣٧ ، حتى لم يعد اي مانع يقف في وجه ميثاق سعد آباد الذي وقع في ٧ تموز من السنة ذاتها ، بين تركيا والعراق وايران وافغانستان .

كان هذا الميثاق ، كالميثاق الذي عقد مع ابن السعود . لكنه ، بالاضافة الى الشروط القائلة باحترام الحدود ، وعدم الاعتداء ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، قد اوصى بالتشاور في حال وقوع المشادة الدولية ، كما اوصى باجتماعات دورية لوزراء خارجية الدول الموقعة. ولم يكن الميثاق يحتوي على قيود واضحة. على ان ما قام به موقعو هذا الميثاق ، كان تظاهرتهم الوحيدة عام ١٩٣٩ من اجل عرب فلسطين .

وكان العراق ، قد وقع بالمثل ، عام ١٩٣١ ، معاهدة صداقة مع شرقي الاردن . وفي عام ١٩٤١ ، وبعد زيارة قام بها وزير خارجيته الى القاهرة ، تقرر ان يكون تبادل وجهات النظر في اجتماعات دورية ، بشأن الحالة الدولية ، بين مصر والعراق .

في هذه الاوضاع ، نشبت المعركة مع انكلترا . وكان راديو بغداد يذيع ، بخمس عشرة لغة ، نداءاته المتكررة، ليذكي الحماس

في قلوب المرتابين . وكان مفتي القدس الاكبر ، لاجئاً في بغداد ، فاعلن الجهاد المقدس ، دون ان يكون له حق في ذلك . ففرّ من الجيش بعض الوحدات الهندية ، وحثها على الحرب احد افراد عائلة الكيلاني في الهند ، وهو من انسباء رشيد عالي . كذلك نشبت بعض ثورات ليست بذات اهمية ، في حضرموت وعمان Oman ، اخمدت جميعها .

وطار وزراء العراق الى العواصم المجاورة ، ليفهموا ذوي الشأن ، وجهات نظرهم في هذه المعركة. لكنهم تأخروا في ذلك، هذا اذا كان هؤلاء الجيران ، يقاسمون العراق رأيه . فقد ابرق ابن السعود معلناً عطفه ، دون ان يبعث بمقاتل واحد ؛ وبالعكس فقد اغتنم هذه الفرصة ليطالب شرق الاردن بالعقبة . وطلب الامام يحي من بريطانيا ثمنا لحياده ، بعض الاراضي من محمية عدن . وتظاهر في سوريا بعض الشبيبة ، واتجه بعضهم ، اختياريا ، الى العراق . وفي شرق الاردن ، اتخذ الامير عبدالله موقفاً رسمياً وعلنياً ، بجانب انكلترا ، وتخاصم لاجل ذلك مع ولده . كل هذا دون نتيجة . ومما لا شك فيه . ان الوقت ، على الارجح اعاق اظهار عواطف العرب وتضامنهم ، كما وان معركة العراق مع انكلترا ، كانت معركة صورية ، لتخفيف الضغط عن المانيا، كما ابعدت العراق عن طريقه نحو الاستقلال . ومما يجدر ذكره ، ان كثرة توهم هذه الدولة بالتضامن مع البلاد العربية ، قد زال امام المطالع الخاصة لكل دولة .

ان حظ العراق من هذه المعركة ، على ضآلة فوائده ، كان

معروفاً سلفاً . ففي اقل من شهر ، عاد الانكليز اسياد البلاد . ودخل الوصي القديم معهم الى بغداد ، حيث شكل حكومة جديدة ، وقعت الهدنة حالاً ، ولم ترفض لانكلترا اي مطلب .

منذ نهاية الحرب، يظهر امامنا بعض احداث تستلفت الانتباه. لقد وقع في ايلول عام ١٩٤٦ ميثاق اتحاد بين العراق ؛ وشرقي الاردن . إن هذا الميثاق ، الذي يحترم استقلال البلدين ، فدوحد اتجاه الدولتين في السياسة الخارجية، والدفاع الوطني ، والمؤسسات الثقافية ومصلحة الجمارك . والف مجلساً للاتحاد يجتمع بالتناوب ، في عاصمتي الدولتين : عمان وبغداد ، واذ لم يكن هذا الميثاق يذيب الدولتين الشقيقتين في دولة واحدة ، فانه خطوة في هذا السبيل . وهكذا نجد ان دولة الحسين ، التي ماتت وليدة ، بدأت اجزاؤها تتحد تحت العين اليقظة ، عين انكلترا

بعد وقت قليل ، ايار عام ١٩٤٧ ، واثناء جدال حدث في مجلس الاعيان العراقي ، اعلن رئيس مجلس الوزراء ، ان الحكومة ستطلب مراجعة المعاهدة الانكليزية ـ العراقية ، لتحافظ اكثر على المصالح الوطنية العراقية . لكنه ، **« دون ان يطبق بعض الاساليب السريعة ، التي اتبعتها باقي الحكومات ، والتي تؤمن سير المفاوضات في اتجاه حسن »** . وكان ذلك تأكيداً لانكلترا عن حسن طويته . واضاف الوزير الاول ايضاً ، ان حكومته لن تطلب تجديد ميثاق سعدا باد .

في حال عدم تجديد ميثاق سعداباد ، لم يعد العراق يفتش عن مساعدة من الشمال ومن الشرق ، بل اتجه نحو الدول العربية ،

خاصة نحو شرق الاردن ، التي لم تتنكر قط لانكلترا . اما في ما يختص بالمفاوضات لاعادة النظر في المعاهدة الانكليزية — العراقية ، فقد اجتمع بلندن في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ ، رئيس وزراء العراق ، مع وزير خارجية بريطانيا ، ووقعا على معاهدة جديدة ، تخلت فيها بريطانيا عن قواعد الحبانية والشباد للعراق ، على أن يظل البريطانيون يستعملونها ، حتى توقيع معاهدة الصلح ، وان تبدل القوات العسكرية البريطانية ، بمفوضين يستقرون فيها تطبيقاً لمشروع الدفاع المشترك . ويسمح للقوات البريطانية ، ان تمر بالعراق دون ان تمكث فيها طويلاً . وهنالك ، اخيراً ، شرط يقضي على الطرفين الموقعين ، ان يتبادلا الاجتماعات في حال اضطرار احدهما ان يدخل في معركة ما . اما البدعة الكبرى ، فهي « **خلق مجلس مشترك للدفاع ، يزيد الصلات مودة واخلاصاً ، ويربط — رغم جميع الامتيازات المعقودة — العراق بانكلترا** » . وبعكس ما كان ينتظر ، فقد رفض المجلس العراقي المعاهدة الجديدة ، واضطر الوصي ان يوافق على هذا الرفض ، فخذلت الوزارة واضطرت ان تستقيل .

لذلك ، فمن الصعب ان ننتظر — رغم هذا — اي تحوّل في اتجاه السياسة العراقية . اذ ليس بامكان العراق ان يستغني عن مساعدة انكلترا ؛ لان الاكراد الذين يُشجعهم الاتحاد السوفييتي ، يشكلون خطراً جدياً على وحدة الدولة العراقية ، التي تجاور شمالا حدود ازوربيجان . ان التجربة التي كادت ان تخلق في هذه المنطقة ، جمهورية مماثلة لجارتها الكبرى ، قد اخفقت ، ولكنها قد تنجح

ثانية . انها طريق للدخول الى العراق والبلاد العربية ، وليس بامكان العراق ان يدافع عنها لوحده . فضلا عن ذلك ، فان العراق بحاجة الى معونة بريطانيا في الحقل الاقتصادي. ان معارضة المعاهدة الجديدة، تبدو - من جهة - نتيجة حملة قامت بها العناصر التقدمية - الوطنيون المتطرفون والشيوعيون - ومن الصعب ان يدعوهم يحصرون القضية الوطنية بانفسهم .، ومن جهة ثانية ، نتيجة تدبير رصين ، قام به الوصي . ان احد الموانع الرئيسية التي وقفت في سبيل انشاء « سوريا الكبرى »، هو الخوف الذي لا يبدو واضحاً من ان المشروع هو تدبير انكليزي . من هذه الفكرة ، يظهر الامير عبدالله رجلاً متواطئاً لا طب ينجع فيه . ولاجل هذا ايضاً قامت تظاهرات استقلالية عامة - وكأنها كانت ترمي الى جعل الوصي السيد المطلق للدولة - فاحدثت عداء في قلب هذه العائلة التي لا تبدل شيئاً من صميم القضية . ويمكن التكهن ، بانه اذا فتح باب المفاوضات - عاجلاً او آجلاً - فان عجلة السياسة في العراق ، ستظل مرتبطة بعجلة السياسة الانكليزية .

٢ – شرق الاردن ، او الامير الذي يملك ولا يحكم

ان المسافر الذي يتجه من فلسطين الى العراق ، ومن سوريا الى نجد ، لا يشعر قط ، بانه اجتاز دولة جديدة ؛ ذلك لانه يجد صحراء واحدة ، تنتشر فيها قبائل متشابهة . فلاشيء يمكنه ان يميز بين شرق الاردن والبلاد المجاورة . فضمن حدود وهمية وغير ظاهرة ، وعلى مساحة ٦٥ الف كيلو متر مربع ، نجد سكاناً يقارب عددهم الثلاثمئة الف نسمة ، هم باكثريتهم من البدو الرجل. عاصمتهم عمان ، وعدد سكانها لا يتجاوز ١٢ الف نسمة . ليس فيها صناعة ولا زراعة . فتربية المواشي هي ، تقريباً ، ثروة البلاد الوحيدة ، لولا بعض معادن القلى في منطقة بحر الميت .

وعلى مساحة الفي كيلو متر ، وحدود لا يمكن الدفاع عنها ، تبدو شرقي الاردن ، منطقة قتال بالمعنى الصحيح . ان السبب الوحيد الذي خلق هذه الدولة ، هو مصلحة بريطانيا لتسهيل مواصلاتها من العراق الى البحر الابيض المتوسط . لقد كان بالامكان ان تلحق شرق الاردن بالعراق او بفلسطين . لكن خلق دولة ثالثة على حدة ، يعطي انكلترا فائدة مضاعفة . فقد

اخرجت مقاطعات هامة من المنطقة الصهيونية ، واكملت سياستها مع الحسين ، فكافأت الابناء ، بما لم تتمكن ان تمنحه للأب .
وهكذا اصبح الامير عبدالله ، الابن الثالث للحسين - والذي قال عنه لورانس في « دعائم الحكمة السبعة » وباسلوب تهكمي ، (انه سخيف لا كفاءة فيه - سيد الدولة الجديدة) .

لم يكن هذا التنظيم ، ليشكل اي خطر . فان هذه المملكة التي كانت دون دخل ، ودون جيش ، اصبحت بكاملها بين ايدي المنتدبين (بكسر الدال) ، ولم تتخلف قط ، عن اظهار ولائها لانكلترا . ان مصرف الدولة الانكليزية ، ادخل في حسابه الديون العثمانية العائدة لشرق الاردن ، وتدارك حاجات هذه الدولة . ولاجل سلامتها ، الف بيك باشا (Peak Pacha) جيشاً عربياً سلمت قيادته الى الداهية الميجر كلوب Clubb (ابو حنيك) . ولم يكتف هذا الجيش بحماية الاراضي وحراسة خط الانابيب التي تنقل النفط من العراق الى حيفا ، بل فهو الذي دخل العراق عام ١٩٤١ وقمع ثورة رشيد عالي ، بعد ان سبب حوادث عديدة على حدود سوريا في عهد الانتداب. لقد اصبح بالامكان ، ان نحسب لهذا الجيش حسابا

لم يكن عبدالله سعيداً في بداية امارته . لقد أعلن من قِبَل المستر تشرشل ، في القدس عام ١٩٢١ ، اميراً على شرق الاردن لكنه لم يتسلم رسميا ، الا عام ١٩٢٣ ، اعمال هذه الرتبة التي خلعتها عليه انكلترا ، واقنعته بقبول الانتداب . ان الجدل حول هذا الموضوع ، قد حرك العداء القديم بين القبائل ووقعت اضطرابات عام ١٩٢٤ . فسلم عبدالله المجرمين ، وقبل بدستور جديد ، وُضع

فيه موظفون انكليز وزراء له . ونتيجة اخلاصه هذا ، منح عام ١٩٢٨ معاهدة ، ظلت فيها مقادير البلاد الحقيقية مع انكلترا . فاحتجت القبائل ، وقوطعت انتخابات المجلس الوطني ، ولم يجتمع البرلمان . ووقعت حوادث عام ١٩٣٣ ، حينما ارادت الصهيونية ان تضع قدمها في البلاد . وقد اعطى عبدالله مثلاً سيئاً ، اذ اجر احد ممتلكاته من اليهود . فلم يمضِ هذا العمل دون احتجاجات صارخة . فأعلن ، حينئذ ، منع بيع الاراضي من اليهود ، وهكذا هدأت المسأله نسبياً . وفي عام ١٩٣٤ ، جددت المعاهده بين انكلترا وشرق الاردن ، واكملت ، دون ان تزيد سلطة عبدالله زيادة تذكر .

في ٢ تشرين الثاني عام ١٩٢٥ ، سوّيت قضية الحدود مع ابن السعود ، بمعاهدة « جدة » ، دون ان تنتهي مسألة العقبة التي ظلت معلقة . كما وقع عبدالله ميثاق صداقة مع العراق (٢٧ آذار ١٩٣١) وحينما وقعت الحرب بين انكلترا والعراق ، اعلن عبدالله وحده مساعدته لانكلترا

من العجب حقاً ، ان يزهو امير ، يحكم بسلطة باطلة ، وعلى دولة وهمية . والواقع انه يأمل — عاجلاً او آجلاً — ان يحصل على نتيجة افضل . ان حلمه الوحيد ، هو ان تخلق — لمصلحته الخاصة — سوريا الطبيعية ، او سوريا الكبرى مع فلسطين ، والعراق ، وسوريا ولبنان بكامله او جزء منه . وبالتالي جميع الممتلكات العثمانية قبل عام ١٩١٨ ما عدا السعودية . واذا اهملنا

قضية « الاسر المالكة » التي فصلت دائماً الهاشميين عن ابن السعود، وجدنا التناقض القديم الظاهر، بين ما يسمونه البلاد العربية البدوية والبلاد العربية الاكثر حضارة وتطوراً. إن هذه الاخيرة مفتوحة للنفوذ الخارجي، وهي باكثرها متحضرة منذ زمن بعيد. كما وان كل زيادة في قوة عبدالله، وكل تقارب من جيرانه، هما خطوة الى امام في سبيل تحقيق حلمه. وهذا ما يشجع انكلترا لتسند هذا الرجل. فهي الواثقة من امانته، وهو المدين لها بكل شيء.

ومن هنا يمكن تفسير الاعتراف باستقلال شرق الاردن عام ١٩٤٦، واعلان الامير عبدالله ملكا. واذا كانت المعاهدة، التي عقدت بين انكلترا والمملكة الجديدة، قد اعترفت باستقلال الاخيرة، فانها لم تكن، في الوقت ذاته. اقل ضمانة لمصالح الاولى فان قروضاً جديداً قد فتحت، لتظل يدها على البلاد، ولا سيما القرض الذي خصص لاصلاح مرفأ العقبة، نقطة الانطلاق الى البحر الاحمر، ومركز المواصلات بين هذه البلاد والبحر الابيض المتوسط، في حالة ضعف قناة السويس.

في آذار عام ١٩٤٨، وقعت معاهدة جديدة، كانت اهم شروطها تدور حول الدفاع المشترك في حال تدخل اجنبي. وقد حافظت انكلترا فيها على حقوقها في القواعد الجوية، كما حافظت على سهولة النقل الجوي والبري. وبالمقابل، قدمت بريطانيا لشرقي الاردن، قرضاً سنوياً قيمته خمسمائة الف ليرة استرلينية، لتنظم هذه قواتها الجوية؟ ومليوني ليرة اخرى، لزيادة قوة جيشها

ان مستقبل شرق الاردن ، سيظل معلقاً بمستقبل بريطانيا .

رأينا سابقاً ، أن الاتحاد ، بل الذوبان مع العراق ، يكاد يكون واقعياً . اما الاتحاد مع سوريا ولبنان ، فان مشكلة صعبة الحل ، تقف في سبيله . فان المصالح المشتركة ، العنصرية ، والثقافية والاقتصادية ، تصطدم بمصالح خاصة لكل بلد . غير ان الصبر هو من ميزات وفضائل الشرق . اما من جهة فلسطين ، فلم يفقد اي عمل بعد . فاذا اصبح التقسيم حقيقة ، فان الدولة العربية ستشعر ، دون شك ، بضعفها وجهاً لوجه ، امام دولة يهودية ، تملك قوات تضاهي قواتها . لذلك فالرأي الراجح ، انها ستفتش عن اتحاد مع دولة مجاورة ، ولن تكون هذه الدولة سوى شرق الاردن .

ان معارضة اكثر رهبة ، ظهرت في الافق السعودي . فقد صرح ابن السعود لدى اعلان عبدالله ملكاً على الاردن ، بانه لن يتنازل عن حقوقه بالعقبة . وهذا ما يظهر لنا تناقض المصالح الخاصة التي ستتغلب على فكرة الاتحاد .

٣ – فلسطين او عندما تريد اسرائيل ان تحكم

اذا قارنا بين محادثات سان ريمو Sau Remo عام ١٩٢٠ ، والقانون الدولي الذي اسفرت عنه اتفاقيات سان بيكو ، وقرر

فيه الانتداب ؛ وجدنا ان انكلترا ربطت قضيتها ، في فلسطين ، مع القضية الصهيونية . فهي عندما وعدت ، منذ تشرين الاول سنه ١٩١٧ ، في وعد بلفور Balfour ، بان تخلق وطناً قومياً لليهود ؛ اصبح من الصعب عليها ان تحنث بما وعدت به . وكان عليها ، في الوقت ذاته ، ان تحترم ارادة العرب ، الذين ارتضوا استقلالا في فلسطين الموحدة ، حيث يقبل فيها اليهود ، على ان يكونوا اقلية ، دون ان يكون لهم الحق - في جميع الحالات - ان يشكلوا دولة سيدة .

فتأريخ فلسطين ، اذن ، يمتاز بالصراع بين العرب واليهود ، وجهود انكلترا التي ترغب - رغم هذا الصراع الذي كان يحدث تحت كنفها - في ان تظل سيدة على رقعة من البلاد لها قيمتها الستراتيجية (١) .

ان الصهيونية تعني عودة اليهود الى اسرائيل . ويعود تاريخ الصهيونية الى عام ٥٨٦ ق. م. بعد ان استولى كورش على بابل ، فاسر اليهود وادخلهم بابل . وبعد خمسين سنة اطلق سراحهم فلم يعد منهم الى فلسطين ، سوى اربعين الف نسمة . وظل الباقون في بابل . انه بداية عهد التشريد . وبعد تخريب اورشليم على يد تيطوس سنة ٧٠ ق.م. أسر اليهود سنة ١٣٥ بعد الميلاد ، وارسلوا

---

(١) ان كلمة Stratégique تعني بالعربية (الفن العسكري) ولكننا فضلنا تعريب اللفظ لان المعنى الفرنسي شامل ، ولان اللفظ اصبح دولياً .
(المترجم)

هذه المرة الى رومة ، وذلك بعد ثورة قمعت بشدة .

وكان هذا التشريد الجديد ، نهائياً . ويجب ان ننتظر حتى القرن التاسع عشر ، حيث وضعت على بساط البحث ، من جديد ، قضية عودة اليهود الى بلاد صهيون .

بدأت الحكومة هذه الحركة عام ١٨٨٠ في اوروبا الوسطى ، حيث انبرت « جمعية اصدقاء صهيون » تطلب لليهود ملجأ يحميهم من الاضطهاد . وكان عهد الاضطهاد الروسي Progroms Russe ولم يكن في فلسطين سوى بعض مجموعات معدودة ، ضعيفة ، في القدس وطبريا ، وصفد. ومنذ عام ١٨٨١ ، وصل بضع مئات من المهاجرين ، فاسسوا اولى المستعمرات : بطاح Petah ، تيكفيه Tikveh ، ريشون الصهيوني Richon le Sion ، واتسعت الدعوة في اوروبا ، بفضل اشخاص لهم تأثيرهم مثل (ليو بنسكر Leo Pinsker) ، (وجنسبرغ Ginsberg) ، وماثياس اشر Mathis Asher . لكن الحكومة التركية ، اوجست فيهم خيفة ، فمنعت الهجرة اليهودية ، لكنها عادت فرضيت ، تحت تأثير اللورد روتشلد ، ان تقدم لهم بعض الاراضي .

وامتاز عام ١٨٩٧ ، بمؤتمر صهيوني هام ، عقد في بال Bâle ، تحت رئاسة المحرّض النمساوي – الهنغاري هرزل (Herzl) ، مؤلف كتاب ، « الدولة اليهودية » ; هذا الكتاب الذي احدث ضجة عميقة في العالم الاسرائيلي . ومنذ ذلك الحين ، اخذت الصهيونية طابعاً سياسياً صرفاً **ولم تعد الصهيونية تعني لجوءاً من**

الاضطهادات ، بل ، اصبحت تريد وطناً قومياً . واصبح الاسرائيليون يريدون ان يؤسسوا في ارض اسلافهم ، دولة حيادية تضمنهـــا الدول العظمى . ولم يتردد هرزل في ان يعرض شراء فلسطين من السلطان ، الذي رفض ، لكنه اغمض عينيه عن الهجرة الخفية . وفي مطلع حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ ، لجأ الى فلسطين خمسون الف يهودي وجدد احدهم « بن يهوذا » ، اللغة العبرية ، التي اصبحت اللغة القومية . ولم تتطور الصهيونية بشكل بارز إلا ابان تلك الحرب .

كان مجلس اركان هرزل ، لجأ اولاً الى برلين ، حيث اظهرت « جمعية مساعدة اليهود الالمان » L'Hilfsversin der Deutshen Juden ، نشاطاً بارزاً ، وخلقت في فلسطين مؤسسات صهيونية ، استعملت اول الامر الدعاية الالمانية ، وخلال عام ١٩١٦ ، نقلت المنظمة مركزها الى لندن حيث كان لمصرفها La Jewish Colonial Trust المركز الرئيسي . وكانت الحكومة البريطانية ، قد اعطت الدليل ، اكثر من مرة ، بعطفها على الحركة الصهيونية . حتى ان المستر تشمبرلن اعلن ، دون حذر ، عام ١٩٥٠ ، عن انشاء الوطن القومي اليهودى في افريقيا الشرقية . وكانت الاوساط الاسرائيلية قدمت للحلفاء خدمة هامة جداً ، اذ أثرت في دخول اميركا الحرب وفي تكاليف الحرب ايضـاً . وبعد محادثات طويلة بين الدكتور وايزمن ، والسيد مارك سايكس ، والسيد بيكو ، والسر رفيس ، ودانيال اسحق ، سفيرا انكلترا في اميركا ، اسفرت عـن تقديم مذكرة الى اسكيث Asquith ، رئيس الحكومة البريطـانية ،

رفعها زعماء الصهيونية ، يأملون فيها بالهجرة الى فلسطين ، بمساعدة بريطانيا ، على ان تتمكن هذه الاخيرة ، ان تدخل من ثلاثة الى اربعة ملايين يهودي .

غير ان فرنسا ، وقد اخذت علماً باتفاق سايكس - بيكو ، رفضت بصعوبة خلق فلسطين دولية . وانتهت القضية اخيراً ، باعلان اتفاقية خاصة : انها وعد بلفور . اما هذا الوعد ، فهو كناية عن كتاب عادي ، مؤرخ في ٢٠ تشرين اول سنة ١٩١٧ ، موجه الى اللورد روتشلد ، وقد جاء فيه : « **ان حكومة صاحب** « **الجلالة ، تنظر بعين العطف ، على اقامة داعة في فلسطين ،** « **وخلق وطن قومي للشعب اليهودي ، وهي تعلن بوضوح ، أن** « **لا شيء يمكنه ان يلحق الاذى بالحقوق المدنية والدينية الطوائف** « **غير اليهودية المقيمة في فلسطين ، او يمس الدستور السياسي** « **لليهود في اي بلد كان** »

ان هذا النص المبهم ، حمل بذور الصعوبات ، التي لم تتوقف عن صدم انكلترا ، منذ ذلك الحين . ذلك ان الوطن اليهودي ، يعني - بالنسبة الى اليهود - دولة يهودية . وان جميع الكتب البيضاء ، التي حددت الوطن اليهودي بانه طائفة ثقافية مستقلة ، هي باطلة . **فان الدولة اليهودية** ، « **لا يمكنها الا ان تلحق الاذى بالطوائف غير اليهودية** » **اي العرب** . ومهما يكن الامر ، فان هذا الاعلان ، قبلت به فرنسا في ٩ شباط ، وايطاليا ٩ ايار سنة ١٩١٨ . كما ان الرئيس ولسن ، بعث بكتاب الى رابي ستيفان

وايز Rabbin Stephen Wise ، اظهر له فيه عطفه على القضية . ولم يرفض سوى الحسين ، العدو الازلي .

كان الحسين لا يزال يجهل اتفاقيات سايكس - بيكو (١) ، وظل مرتبطاً باتفاقه الخاص مع السر هنري مكماهون . وفي ايار عام ١٩١٧ ، اثناء محادثات طويلة ، تمكن السر مارك سايكس والسيد بيكو ، ان يهدئا تسرعه ، ويزيلا شكوكه . وبعدد وعد بلفور ، قامت بعثة عسكرية بقيادة هوغارث Hogarth ، العالم للآثار القديمة ، وجاءت خصوصاً الى جده لتؤكد للحسين ان السماح سيكون للهجرة اليهودية فقط ، وان الحرية السياسية والاقتصادية للعرب ، ستظل مضمونة ؛ فسر الحسين من هذه التفسيرات . وفي كانون الثاني سنة ١٩١٩ ، اعيد بحث هذه القضية في باريس ، اثناء محادثات فيصل الذي قبل - من اجل انقاذ المملكة العربية - بما يسمونه المعاهدة اليهودية - العربية . لقد اعلن فيصل قبوله بالوطن القومي ، على ان يكون هذا الوطن خاضعاً للملكة العربية .

إن جميع هذه المعاهدات ، وهذه الاتفاقيات مبهمة ، ينقصها الوضوح ، وهي لا تحتفظ بجوهرها إلا بتغذية المشاحنة . انها تفسّر لنا الجو القاتم ، الذي سيعترض سبيل انكلترا ، حينما تشرع بتنفيذ انتدابها .

إن بعض الحوادث اثبتت بداية الاضطراب . ولكنها سُوّيت

(١) كانت حكومة السوفيت ، عثرت على نسخه من الاتفاقية بين مخلفات الحكومة القيصرية ، فبعثت بها الى الحسين والحكومات العربية .

لأن الحصنين لم يكونا ، قد نظما صفوفهما بعد ؛ او تحفظا للأمر .
لقد عين الانكليز مفوضاً سامياً ، يعاونه مجلس تشريعي من اثنين وعشرين عضواً : اثنا عشر بالانتخاب ، وعشرة تعينهم الدولة المنتدبة . ولكي يهدىء المفوض السامي الاوساط ، العربية – التي تخشى المفوض هربوت صموئيل اليهودي ، ان يفضل ابناء دينه – اكد ، من جهة ، ان مسألة الهجرة سيتعهدها مفوضون ينبثقون عن المجلس ؛ ومن جهة اخرى ، كانت اللجنة الصهيونية ، التي تعمل في حاشية المفوض السامي ، تساعد على تطور البلاد كما ترغب دون ان تتداخل في وضعها السياسي او شؤونها الادارية . ومنذ ذلك الحين ، فرضت هذه اللجنة ديكتاتوريتها السياسية والاقتصادية على البلاد ، ومنذ ١٩٢٩ اصبحت هذه اللجنة معروفة باسم « الوكالة اليهودية » .

وكان من منهج هذه الوكالة ، ان ترفع تطور الهجرة ، وتضمن الحاجات الدينية اليهودية ، وتساعد على تطور الثقافة اليهودية ، وتنشر فكرة « بناء الوطن اليهودي » ، دون ان يشعر بها احد ، وتستعمل اليد العاملة اليهودية . وكان يقود هذه الوكالة من لندن مجلس اداري ، تخضع له اللجنة التنفيذية في القدس . وكانت ميزانية هذه الوكالة قوية . ذلك ان فكرة « بناء الوطن اليهودي » ، التي انتشرت منذ عام ١٩٢٠ ، كانت تتغذى ، اختيارياً ، من تبرعات جميع يهود العالم . كما وان مصاريف الهجرة ، والمستعمرات ، وشراء الاراضي ، كانت ، بالمثل ، تتغذى من الهبات . وعندما وجدت هذه « الوكالة » ، جمعت اكثر من ١٨ مليون ليرة .

وبين ١٩٣٩ و ١٩٤٦ صرفت ٧٣ مليون ليرة لشراء ٤٠٠ الف دونم من الاراضي (الدونم يساوي ١٠٠٠ م٢) فرفعت ممتلكاتها الى ٨٦٧،٠٠٠ دونم .

ان العرب هم اقل سرعة في التنظيم . فهم ، فضلاً عن الجمعيات السرية التي انشأوها - مثل « جمعية ازالة اليهود » ، « ومكتب الدعاية ضد اليهود » الذي انشأه مفتي القدس الاكبر - اظهروا نشاطهم في عدة مناسبات اسلامية وعربية ، والفوا هيئة عربية عليا ، محدودة العدد ، سهرت وحافظت على مصالح العرب .

*

ظل الهدوء يعم حتى عام ١٩٢٩ . وكانت الهجرة اليهودية لا تزال قليلة ، تتساوى مع عدد المواليد العرب ، الذين ارتفعت - حسب الاحصاءات الصحية الانكليزية - نسبة المواليد بينهم على الوفيات ، فبلغت ٢٨ بالمئة . وفي شهر آب ، حصلت اضطرابات قرب حائط المبكى ، قتل فيها من اليهود اكثر من مئة ، وجرح مئات . وفي تشرين الاول ، اعلن المؤتمر العربي في القدس ، وقف الهجرة . وتهدئة للخواطر ، ارسلت الحكومة البريطانية بعثة للمفاوضات ، فنشرت كتابا ابيض ، اعلنت فيه تحديد الهجرة . فاستقال الدكتور وايزمن ، رئيس الوكالة اليهودية ، الذي فاوض بلفور ونال وعده المعروف ، فاحدثت استقالته ضجة ، واكملت الهجرة سيرها على احسن ما يكون . فان بعض ارقام تعطينا فكرة عن زيادتها .

ففي عـام ١٩٣٣ ، دخل ثلاثون الف مهاجر ، وعام ١٩٣٤ اثنان واربعون الفاً ، وعـام ١٩٣٩ ، واحد وستون الفاً ، بينما كان مجموع عـدد اليهود ، ثلاثمئة الف نسمة . واصبح ، في مجموعة من السكان تناهز المليوني نسمة ، اكثر مـن ستمائة الف يهودي ، وحوالي المليون ومئتي الف عربي ، ومئة الف مسيحي . ومما هو جدير بالملاحظة ، ان اليهود اذا ارادوا شراء الاراضي من العرب ، فانهم يفضلونها قريبة من المدن ، فتل ابيب ، المدينة الصرف يهودية والواقعة قرب يافا ، انشئت منذ مدة ، ويتجاوز عدد سكانها اليوم اكثر مـن مئتي الف نسمه . ويبلغ عدد اليهود في القدس ، مئة الف ، وفي يافا عشرون الفاً وفي حيفا ، عشرة آلاف . اما الصناعة التي كانت ، قبل الحرب ، محدودة بصناعات الاسنان ، وغزل القطن ، وحفظ الاثمار ، وقطع التذكارات ،فقد تطورت اليوم ، واصبحت صنـــاعات لصهر المعادن ، وصناعات للنسيج ؛ ومصاف للبترول ،وصناعات اضافية اخرى . وتستعمل هذه الصناعات اكثر عمالهـا من اليهود ، لان هؤلاء يبرزون في جميع الصناعات العائدة الى التجارة ، كما وانهم احتكروا المهن الحره . فبين الف وخمسمائة طبيب ، كنت ترى الفاً وثلاثمئة يهودي اما في الارياف ، فان عدد اليهود ضئيل جداً. انهم منتشرون في عدة مستعمرات زراعية، هرباً من النفقات الباهظة ؛ وهم يعيشون بنظام ، ويعملون بالوسائل الحديثة ، التي تدعمها المؤسسات القوية مثل : اتحاد المزارعين اليهود ، والمصرف الزراعي ، وصندوق التامين . وبالرغم من ان كثيراً من هذه المستعمرات تخسر ،فان

دخلها يزيد بكثير عما يحصله العرب . وهذا لم يمنع العرب ان يعلنوا عن نهب ممتلكاتهم ، التي قبضوا ثمنها – على الغالب – اثماناً باهظة . وهي اراض لم تكن تنتج لهم شيئاً يستحق الذكر .

وحتى عام ١٩٣٦ ، ظل جو فلسطين يميل الى الصفاء اكثر منه الى الاضطراب ؛ اذا استثنينا بعض حوادث مثل مصرع الدكتور اورلوزوروف (Orlozorof) رئيس المجلس التنفيذي الصهيوني ، وبعض اضرابات واضطرابات طفيفة . وكانت الافكار تتهيج ، شيئاً فشيئاً ، حتى كانت المشكلة الحبشية ، فأيقظت العنصرية القومية ، وانتقل العرب من مؤتمراتهم – مؤتمر نابلس ١٩٣٥ ومؤتمر العلماء ١٩٣٦ – الى التظاهرات الصاخبة ، ليس ضد اليهود فقط ، بل ضد الانتداب ايضاً .

جرّب المفوض السامي ، ان يمنع هذه الحوادث ، بعد ان شعر بخطرها . فاعاد المجلس التشريعي الذي اهمل منذ ١٩٢٢ . لكن العرب واليهود اتفقا على عدم القبول بهذا الحل. فألف مجلس مباحثات لدرس تحديد بيع الاراضي ، لكن اوامر من هذه الانواع ، هي غير نافذة المفعول . وفي عـــام ١٩٣٦ انفجرت اضطرابات في يافا ، اثر منع اجتماع عربي ، وقع فيها كثير من القتلى . واعلن الاضراب العام في عموم فلسطين ، اعلنه زعماء العرب بشكل احتجاجات . وكانت بداية صراع مسلح بين اليهود والعرب ، ثم تحول ، من ناحية العرب الى عصيان صحيح ، مما اضطر الانكليز – ليظلوا اسياد الموقف – ان يتدخلوا ، بقوات

هامة . وكان الثوار يقطعون الطرقات ، ويهاجمون المستعمرات اليهودية ، فيثأر اليهود لانفسهم من العرب ، ويتقاذفون القنابل في المدن ، حتى في القدس نفسها ، فيسجنون ويعدمون بالجملة ، وتجرد الحملات على المدن المتمردة ، وتتخذ التدابير السياسية الصارمة ، وتلغى « الهيئة العربية العليا (١) » وينفى اعضاؤها الى سيشل Seyshell (٢) ، ويلجأ المفتي الاكبر الى لبنان .

هكذا ظل الميزان ، مدة سنتين من الاضطرابات .

ولم يعد الهدوء ، الا حينما اعلنت الحرب . حيث اصبحت القوات الانكليزية في فلسطين ، هذا الوقت ، عديدة ومجهزة . ولم يكن الهدوء الا مهادنة موقتة ، لان اسباب النزاع لا تزال كما كانت . كان الانكليز ارسلوا عام ١٩٣٦ ، بعثة مفاوضات جديدة الى فلسطين . انها بعثة بيل Peel . لقد قررت هذه البعثة ، كحل للمشكلة ، ان تقسم البلاد الى ثلاث مناطق : منطقة يهودية واخرى عربية ، وثالثة انكليزية . لكن هذا الحل ، الذي ابقى احسن الاراضي بين ايدي اليهود ، دون ان يمنع اختلاط العناصر ، لم يراع . ولم تسفر المفاوضات التي جرت في العام التالي عن شيء . وحين اسقط بيد بريطانيا ، عقدت مؤتمراً فلسطينياً بلندن (شباط ١٩٣٩) ضم ، فضلاً عن عرب ويهود فلسطين ، ممثلين عن

---

(١) اعيد تأليف الهيئة بعد الحرب الاخيرة .

(٢) تقع جزيرة سيشل قرب مدغسكر في المحيط الهندي . وكانت مستعمرة فرنسية ثم اصبحت انكليزية (المترجم)

جميع البلاد العربية المجاورة . وانتهى المؤتمر في آذار ، دون ان يتوصل الى نتيجة تذكر .

لم يبق امام الحكومة البريطانية ، الا ان تصدر كتاباً جديداً ابيض « **استدركت فيه قيام دولة فلسطين ، ذات حكومة مؤلفة من اليهود والعرب، ولكن ذلك سيحدث عندما يعود الهدوء والامن . واذا اثبتت هذه الدولة الجديدة كفاءتها وحكمتها ، في مدة عشر سنوات ،فان الانتداب يزول ،ويعقد بين انكلترا وفلسطين معاهدة شبيهة بالمعاهدة الانكليزية — العراقية** » وبالانتظار ، حددت الهجرة بخمسة وسبعين الف نسمة ، لمدة الخمس سنوات التالية .

ومن الملاحظ انه ، خلال هذا الصراع الطويل ، « **لو لم يفقد « عرب فلسطين العطف والتشجيع والمساعدات ، من قبل الدول « العربية الاخرى ، لما ظلوا متراجعين عن مظاهراتهم العنيفة ، « حتى بداية ثورة رشيد عالي في العراق** »

لم تكن فلسطين خلال حرب ١٩٣٩ — ٤٥ ، سوى مركز للعمليات الحربية . لذلك ظلت النوايا في سبات ، حتى اضطر الانكليز انفسهم ان يكونوا ضد استفزازات اليهود ، فتحرك العرب ، فغدت البلاد ، والحالة هذه ، في وضع مليء بالصراع الدامي .

وكان ، كنتيجة للحرب ، ان هرب من اوروبا ، حوالي خمسمائة الف يهودي ، من جراء الارهابات والاضطهادات . فلم

يبق امامهم سوى فكرة واحدة . الالتجاء الى وطنهم القديم .
وكانوا يلجأون الى معسكرات الاشخاص النازحين، Personnes Déplacées ، هذه المعسكرات التي تضم مئة الف لجأوا الى ارض الميعاد . على ان الخدمات التي قدمت اثناء التمرد العربي ، من قبل المنظمة اليهودية الهاغانا Haganah التي شكلها وسلحها الانكليز انفسهم ، واخلاص اليهود ، ايام الحرب ، حيث تطوع اختياريا من هذه المنظمة وحدها ، ما يقارب الثلاثين الف مقطوع كل هذه الخدمات ، جعلت اليهود يعتقدون ان لهم الحق في تسيير الامور حسب ميولهم .

ولاسباب اقتصادية وسياسية ، على الغالب ، وخوفاً من قيام العرب ضد انكلترا ثانية ، اوقفت هذه الاخيرة الهجرة . فاشتعلت الثورة ، ولكنها لم تكن ، هذه المرة ، ثورة العرب ، بل ثورة اليهود الذين قاموا بمظاهرات ارهابية . وكان اليهود قد شكلوا منظمات سرية ، تضم بعض الافراد القليلي العدد ، والمتعصبين لدينهم ، لكنهم مدربون تدريباً حسناً . مثل جماعة ستيرن Stern الف رجل تقريباً ،وارغوم زفي ليومي Irgoum Zvi Leaumi لجنة تحرير اسرائيل خمسة آلاف . وبالرغم من ان منظمة الهاغانا ، تضم حوالي ٨٤ الف رجل ، والتي كانت تسندها الوكالة اليهودية ، قد ساهمت ايضاً في هذا الصراع ، لكنها مساهمة ضعيفة ، لان الوكالة جربت في كثير من المناسبات ان تقوم بعمل منظم ، فقد اضطر الانكليز ان يعتقلوا كثيراً من اعضائها البارزين .

ان الوضع ، بعد مرور عشر سنوات ، يبدو دون مخرج .

وقد قامت لجنة انكليزية - اميركية ، اكثر من مرة ، تحقق في الامر . فكانت نتائجها ، في وقت واحد ، مبهمة وحائرة . لقد اكدت هذه اللجنة ، انه لا يمكن لفلسطين ، في اية حال من الاحوال ، ان تكون دولة يهودية ، لكنها طلبت ادخال مئة الف لاجيء . كما اقترحت منطقتين لهما استقلالهما التام ، في سن النظم التشريعية ، على ان تكون المنافع العامة ، تحت ايالة حكومة ، يشترك فيها اليهود والعرب . وكانت الدول المعنية بالامر ، تتشبث بكلمتين : التقسيم والهجرة . مما كان يرضى بها البعض ، ويرفضها الآخرون .

وفيما هم يرفضون قبول مئة الف لاجيء - لان القبول سيعيد الارهاب الى حاله - في هذا الوقت ، نُسف في القدس ، نزل الملك داود - الذي كان يضم عدداً كبيراً من الاداريين - فقطعت انكلترا المفاوضات التمهيدية ، لعقد مؤتمر فلسطيني جديد . ثم عقد هذا المؤتمر بلندن في ١٩ ايلول عام ١٩٤٦ ، دون ان يحضره يهود او عرب فلسطين ، بل حضره فقط ، ممثلون عن الجامعة العربية . وفي ٤ تشرين الاول ، قذف ترومن قنبلته . كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية . مدفوعاً ، دون شك ، بشعور انساني عم اميركا كلها . وخلاصة هذا الشعور ، ان وضع يهود اوروبا الوسطى مضطرب جداً . كما كان مدفوعاً ، ولا ريب ، بتأثير سياسة اليهود الداخلية ، الذين وعدوا بمساعدته بالانتخابات . ان هذه الاسباب دفعت الرئيس ترومن الى اعلان قبول مئة الف لاجيء في فلسطين حالاً .

إن هذا التصريح ، اثر كثيراً في الاوســـاط العربية . وفي الوقت ذاته ، شجع اليهود . فأجل المؤتمر لى ١٦ كان الاول ، ولكن المجتمعين تفرقوا ،اخيراً ، دون نتيجة . كما وان المفاوضات السرية التي عقدت وراء « الكواليس » ، لم يكن لها حظ مـن النجاح . وفجأة ؛ في شبــاط سنة ١٩٤٧ ، اعلن رئيس وزراء الانكليز : **« ان اليهود يشكلون طائفة لا عنصراً ، وهذا لا يمكنهم في اي حال من الاحوال ، ان يملكوا بلاداً »** . كما قرر ان يرفع القضية الى منظمة الامم المتحدة . واكدت انكلترا تضامنها مع البلاد العربية ، حتى اذا مـا اتخذت بعض القرارات ضدهم ، فانها تكون رفعت المسؤولية عنها .

ان المجلس الاعلى؛ بعد ان رفض طلب البلاد العربية ، باعلان استقلال فلسطين ، ونهاية الانتداب الانكليزي ، قرر عام ١٩٤٧ ارسال لجنة للتحقيق ، وهي اللجنة الثامنة عشرة ، قبل تقرير المصير النهائي . وفي اول ايلول اعطت اللجنة نتيجة اختباراتها واعمالها لقد اوصت - بالاجماع - بانتهاء الانتداب الانكليزي، في اقصر وقت ممكن واعلان الاستقلال بعد فترة انتقالية ، على ان تصبح ادارة البلاد ، ذات صلاحيات ومسؤولية امام منظمة الامم المتحدة والاعتراف بالصفات الخاصة للأماكن المقدسة ، ووضع اسس اتفاق دولي للهجرة . كما طلبت - بالاجماع ايضاً - ان يكون نظام الدولة الجديدة ، نظاماً ديمقراطياً ، وان تكون وحدة فلسطين الاقتصادية ثابتة ، وان تلغى جميع الامتيازات التي تخول بعض الدول من التدخل .

فاذا كان من السهل التفاهم على هذه الاسس ، فانه من الصعب وضع دستور سياسي . ان الاكثرية اقتنعت للتقسيم ، بينما اعلنت اقلية ضئيلة ، ايجاد دولة اتحادية ، تستقل ضمن حدودها المقاطعات العربية واليهودية استقلالاً ذاتياً . على ان يكون الدفاع الوطني ، والعلاقات الخارجية ومسألة الهجرة بايالة الحكومة الاتحادية .

لقد قوبلت هذه المبادىء ، بحماس من قبل اليهود ؛ بينما رفضت رفضاً جازماً ، من قبل العرب . ودون ان تدع الارهابات والتهديدات الكامنة تظهر ، اعلنت لجنة التحقيق الخاصة التي كلفتها منظمة الامم المتحدة ان تدرس المسألة ؛ اعلنت التقسيم باقلية بسيطة . ٢٥ صوتاً ضد ١٣ بينها البلاد الاسلامية ، وسبعة عشر صوتاً امتنعت عن التصويت ، بينها فرنسا وانكلترا وتغيب اثنان . وفي ٢٩ كانون الاول ، رضيت الجمعية العمومية بقرار لجنتها ، بثلاثة وثلاثين صوتاً ضد ثلاثة عشر ، وامتناع عشره . وانضمت فرنسا الى الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي القائلتين بالتقسيم ؛ بينما ظلت انكلترا ممتنعة عن التصويت .

وكان من عبارات هذا القرار ، ان تؤلف لجنة قوامها خمسة اعضاء من منظمة الامم المتحدة ، تتكفل ادارة فلسطين في الفترة الانتقالية ، التي تعقب جلاء الانكليز .

وما اعلنت نتائج التصويت ، حتى انسحب المفوضون العرب من قاعة الاجتماع ، واعلنوا عدم اعترافهم بصلاحية المجلس . وعادت الاضطرابات الى شكلها العنيف . واحصي رسمياً بعد

شهرين من قرار منظمة الامم المتحدة - الفان وثمانمائة وستة وسبعون قتيلاً ؛ دون ان يقصدوا بذلك بداية الحرب الحقيقية .
فاعد الطرفان قواتهما ، وكرر العرب واليهود تهديداتهم ، وتسلح اليهود بقرار الامم المتحدة ، واعلنوا انهم سوف يطبقون قرار التقسيم ، مهما كلفهم الامر ، وبوسائلهم الخاصة . وكان موقف العرب اكثر ركاكة . وكان مفتي القدس الاكبر ، على رأس المتحمسين . فايدته الجامعة العربية ، ولكن بشيء من الرصانة والتحفظ ؛ اما حكومات الدول العربية ، فقد كانت اكثر حكمة وروية . **امـــا مرض العرب الخطير ، فهو عدم سماحهم للمفتي الاكبر ، ان يشكل حكومة ، من المنفى ، وذلك بناء عـــلى طلبه .** واعلن الملك عبدالله ، في حشد ، تصريحات متساهلة ظاهرياً لكنها ، في الوقت ذاته ، تهز الافئدة وتحفز على « الفتنة العربية » . وعلقوا كثيراً من الآمال على جيش « اليرموك » ، الذي لا يعد في الواقع ، اكثر من الفي او ثلاثة آلاف متطوع اختياري ، والذي كان عـــلى قيادته ، الرجل الذي عرفناه قديماً ، فوزي القاوقجي ، احد زعماء الثوار ، الذي اضطررنا ان نقاتلهم في سوريا

في هذه الاوضاع ، وقعت مسرحية ٥ آذار سنة ١٩٤٨ وبناء على طلب الولايات المتحدة الاميركية ، اعلن مجلس الامن ، رفضه تبني المقترحات التي اوصت بها الجمعية العمومية ، وطلب تطبيق التقسيم ؛ كما قرر وضع الثقة باعضائه الدائمين — الخمسة الكبار — ليدرسوا القضية بالوسائل المباشرة . وفي نهاية الشهر ذاته ، طلبت الولايات المتحدة الى مجلس الامن ، دعوة الجمعية العمومية ، لدورة

استثنائية ، لتأمين خطوط التقسيم ، وتقام وصاية موقتة ، من قبل منظمة الامم المتحدة ، على فلسطين ، حال انقضاء الانتداب الذي اعلن الانكليز نهايته في ١٥ ايار . وعلى هذا الحل ، قرر مجلس الامن ، بتسعة اصوات ، وامتناع صوتين هما : الاتحاد السوفييتي واوكرانيا .

هذه المرة ، افسدت المسألة باجمعها . فبينما كان مجلس الامن ، يضيع الوقت في مناقشات باطلة ، ويفتش عن المهادنة او اقامت التحكيم ؛ كان اليهود قد مضوا في هجومهم ، واحتلوا بسرعة الاراضي التي قررت لهم (١) ، وهزم « جيش اليرموك » قبل ان تحرك الدول العربية جيوشها الوطنية . وفي ١٤ ايار ؛ اعلنت دولة اسرائيل في تل ابيب ، وفي ١٦ منه اعترفت فيها الولايات المتحدة .

ما كادت الدول العربية تشعر ، بان تأخرها عن العمل ، قد يجعلها تخسر المبادرة ، حتى قررت التدخل . واخترقت القوات المصرية ، والعراقية ، والسورية ، طريقها نحو فلسطين ؛ حيث التقت بالجيش العربي الاردني ، الذي كان لا يزال هناك منذ الانتداب ، واحتلت ، دون صعوبة الاراضي التي يجب ان تشكل الدول العربية ، اذ ليس فيها سوى بعض المستعمرات اليهودية . وكانت القدس ميداناً للقتال العنيف . اما في باقي المناطق ـ وفيما نحن نكتب هذه السطور ـ لم يحدث التحام جدي بين المتحاربين واقتصرت العمليات الحربية ، من الطرفين ، على قصف الطائرات .

---

(١) ما عدا صحراء جنوبي فلسطين

في هذا الوقت ، كان مجلس الامن ، يبحث عن الوسائل التي تضع حداً للاعتداءات .

ان هذه الحوادث ، تبدو غير واضحة . ولاجل فهمها ، يجب الرجوع ، دائماً ، الى مصالح الدول العظمى ، فهي وحدها توضح خططها .

ان انكلترا كانت ثابتة ، هذه المرة ، في عدائها للتقسيم . فهي لا تريد ان تغيظ العرب ، وهي من ناحية اخرى ، لا يمكنها ان تتنازل عن فلسطين ، لانها بحاجة الى قواعد مطاراتها ، كنقطة انطلاق نحو بترول العراق ، وكقواعد ومحطات عرضية لقواتها المسلحة ، بدلاً من مصر . لقد اخلت البلاد ، ما عدا منطقة حيفا نهاية خط انابيب كركوك ومركز المصفاة الهامة . لكنها تأمل فوق ذلك ، ان تظل تستفيد ، على الاقل ، من مركز ممتاز . ان هذا الحلم سيتحقق ، ولا شك ، اذا اصبح اتحاد فلسطين العربية مع شرق الاردن ، حقيقة واقعية . لذلك فهي تنتظر جيش كلوب باشا ، ليحقق الهدف .

اما الولايات المتحدة الاميركية ، فهي توجه عملها ، باعتبارات داخلية ، واقتصادية ، ودولية . فمن الناحية الداخلية ، يكون التيار السياسي مؤاتياً لمصلحة الاسرائيليين ، كلما اقتربت من انتخابات الرئاسة ، وذلك لتحث هؤلاء على مساعدتها . ومن الناحية الاقتصادية ؛ فان البترول ينبع من البلاد العربية ، او يجتازها . لذلك فهي بحاجة الى مراعاة العرب . اما من الناحية

الدولية ؛ فهي لا ترغب ، - في جميع الحالات - قيام اضطرابات خطرة ، تكون حجة لتدخل الاتحاد السوفييتي في فلسطين . وهي ، حسب الظروف ، توجه سياستها لجهة او لاخرى ، حيث ترى ذلك مناسباً . فبينما كانت حكومة الولايات المتحدة تعتقد ان التقسيم - كما بدا لها اولا - ليس بالحل الوحيد الصحيح ؛ جربت ان تهيج العرب ، دون ان تتردد في الرجوع عن ذلك ، حينما بدا لها انها اخطأت في تقدير قوى العرب ، وان اليهود احتلوا دولتهم اصبح التقسيم ، بنظرها ، حلا لا يشكل خطراً ، فاسرعت تعترف بالدولة الاسرائيلية . وهذا ما يساعدها على نيل زيادة اصوات في الانتخابات ، ومن جهة ثانية ، تكون سبقت الاتحاد السوفييتي .

اما الاتحاد السوفييتي ، فليس من مصلحته ولا شك ، ان يغيظ العالم العربي . ولكن قيام دولة يهودية ، يجد ارضاً خصبة لنشر المبادىء والتعاليم الماركسية ، التي تجد بسهولة ، العطف والذكاء . لذلك فهو يؤيد التقسيم (١) . وهو يرى ، زيادة على ذلك ، ان قيام اضطرابات طويلة الامد ، يسمح له بالتدخل في فلسطين ، فينال نصيباً من القوات الدولية المدعوة للمحافظة على النظام وهو اذا تدخل ربح جزءاً هاماً من القضية .

ويبدو ان فرنسا ارادت ان تغتنم فرصة جلائها عن الشرق الاوسط ، لتستعيد مركزها فاستنكفت عن التصويت . واذا

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن الاتحاد السوفييتي كان اول دولة اقترحت استقلال فلسطين ، وقيام دولة اتحادية (المترجم)

كان قد صوتت اخيراً للتقسيم في اقتراع ٢٩ تشرين الثاني ، فذلك لكي لا تجعل النظام الدولي ينهار ، وكان يدعمه في ذلك الوقت ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . ان موقفها كان دون جدال ، يضر بعلاقاتها ، ليس مع الدول العربية فحسب ، بل مع العالم الاسلامي كذلك . ولكن وضعها يتحسن ، اذا مالت دون تحفظ ، نحو مطالب العرب . وقد يكون لها رد فعل على المناطق الاسلامية في افريقيا الشمالية، حيث بدأت تظهر بعض حركات استقلالية . غير اننا اذا وقفنا موقفاً متساهلاً ، فان هذه المناطق ستنفجر ضدنا ولا شك . ومن هنا يمكن فهم ميوعة وتردد فرنسا ، لانها لم تجد سوى ذلك . اذ ليس سهلاً ان تقرر شيئاً لان التقرير يضعها امام مشكلة خطرة

بقي ان ندرس موقف اصحاب العلاقة

من المؤكد، ان في فلسطين، عدداً كبيراً من اليهود والعرب لا يطلبون الا العمل في امن وسلام . وان هذا الصراع المتواصل يجعلهم يخسرون كل حياة طبيعية يرغبون فيها ، وينتهي بانهاك الطرفين ولكن فلسطين اصبحت ميداناً يتجابه فيه عالمان عدوان. إن السلاح والتوتر ، وسوء التفاهم ، جميعها تأتي من خارج . فهل تظل دائماً لعنة اسرائيل على الشعب المختار ؟ وهل تصبح ارض الميعاد ، البلاد الاقل ضيافة في العالم ؟ اليس هنالك اي امل لتسوية القضية ، او على الاقل ، لاتفاق الطرفين المتشاحنين ؟

لقد اوضحنا سابقاً ، عن تمهل جهاز الدول العربية الحربي ،

بدخوله الميدان . اما سبب ذلك ، ، فيمكن استنتاجه من عدائها فيما بينها ، ولم يكن الحشد بين الجيوش الوطنية قد اكتمل بعد ، رغم الاتحاد الذي يهدف للوصول الى نتيجة . وكانت كل دولة تفكر في مصالحها الخاصة ، وتسرع في احتلال ما يفيدها . فضلا عن ذلك ، يجب ان نلاحظ امتناع العربية السعودية عن التدخل . ان فارس الصحراء ، ظل فارساً لنفسه .

ففي اليوم الذي قررت فيه منظمة الامم المتحدة ان تحترم التقسيم - لانه يقضي ، على الاقل ، - على احدى هذه النكبات ، التي قامت منذ ١٩١٨ - في هذا الوقت ، رضخت الدول العربية للواقع . إن اول النتائج سيكون ، ولا شك ضم عرب فلسطين الى شرقي الاردن . ومن المعروف ان هذا الحل سوف لن يغضب الملك عبدالله .

اما في ما يختص باليهود ، فان وضع دولتهم الجغرافي ، يحملهم على الاقتناع . ذلك ان فلسطين ، غير خليقة - بالمعنى الحسابي للكلمة - لان تستوعب عدداً جديداً ، غير محدود ، من السكان . والشيء الوحيد الذي يمكن عمله ؛ وبسرعة ، ان تخلى «معسكرات النازحين » لمصلحة اليهود ، فتكون فلسطين اليهودية ، تحملت كل ما بوسعها . ومهما يكن من امرهـا ، فانها ستظل دولة ضعيفة ، غارقة بين الدول العربية ، فضلا عن كونها بحاجة الى العرب اقتصاديا وستضطر اسرائيل ، في نهاية المطاف ، ان تجد طريقة لتعيش مع الدول العربية Modus Viendi

انها ستحتاج ، بكل أسف الى وقت طويل ، ودماء غزيرة ، لتصل الى هذا الهدف

العربية السعودية

او الموافقة بين الاضداد

ان ما يميز موقف ابن السعود ، في السنوات الاخيرة ، هو اعتماده ، دون تحفظ على الولايات المتحدة ، لاستخراج معادن النفط ، وتحسين قيمة البلاد ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، لاساءته الظن بباقي الدول العربية .

ان التحول الاقتصادي في العربية السعودية ، وضع ابن السعود ، امام عملية مخيفة . فعليه ان يستعمل الاساليب الحديثة ، مع الاعتبارات الاجتماعية ، بان اساليب كهذه ، لا يمكنها ان تجعله يطبق حكماً الهياً في الدولة ، وعليه ايضاً ، ان يسهر على تطبيق القواعد القرآنية ، مع شدة العقيدة الوهابية ، لانه ، من هذه العقيدة ، يستمد كمية وافرة من سلطانه .

وهنالك تناقض مماثل ، كائن في الحاجة المزدوجة للعربية السعودية ، تلك الحاجة التي تضطرها الا تبقى خارج التيار الذي

يحمل البلاد العربية على الاتحاد ، وفي الوقت ذاته ، عليها ان تحافظ على ميزتها الخاصة ، لتظهر قوتها . ان علاقة ابن السعود بجيرانه ، لا تؤثر في هذا التناقض . فان ابن السعود ، قد وقع في ٧ نيسان، بمكة ، معاهدة صداقة مع العراق ، ثم تحولت في ٢ نيسان سنة ١٩٣٦ الى «معاهدة اخوّة عربية وتحالف . على ان هذه المعاهدة، لا يمكنها ان تضع حداً للعداء المستحكم الذي يفرق هذين المغامرين. وهنالك اتفاقات اتحادية مع تركيا (٣ آب ١٩٢٩) ومع الافغان (٦ ايار ١٩٣٢) ومع شرق الاردن (تموز ١٩٣٣) . ان جميع هذه المعاهدات ، تشكل سلسلة من الصداقات العذرية Platoniques .

اما مصر ، فهي بطموح ملكها ، الذي يأمل ان يكون القائد الروحي والسياسي للبلاد العربية ، والذي يعتقد بنفسه انه في حال عودة الخلافة ، سيكون المرشح المحظوظ ، فهو لاجل ذلك لا يثق بابن السعود ، احد رؤساء دولة كبرى ، وحافظ جميع الاحاديث الاسلامية ، على صفائها ، وحامي الاماكن الاسلامية المقدسة . ورغم هذا ، ففي ٧ ايار سنة ١٩٣٧ ، وقعت معاهدة صداقة بين مصر والعربية السعودية ، دون ان تكون اسباب الخصام ، قد زالت .

ومما هو جدير بالذكر ، ان ابن السعود لم يحضر ميثاق الاسكندرية ، الذي وضع الخطوط الكبرى للجامعة العربية ، ولم يرسل اليها سوى مراقب . وهكذا فعل ابن يحيى ، الذي

يتبع، بامانة، السياسة ذاتها : فلم يوقع على الميثاق النهائي للجامعة. كما يجب الا ننكر مهارة فاروق ، الذي اجتمع الى ملك نجد في مرفأ يانبو Yambo الصغير ، لتسوية وجهات النظر السياسية للبلدين . ولما ابعدا مسألة الخلافة عن البحث ، اصبح من السهل ان يتفاهما ضد الصهيونية وضد مشروع سوريا الكبرى .

في كانون الثاني سنة ١٩٤٦ ، ولاول مرة في تاريخه ، يترك ابن السعود بلده ، ليرد الزيارة لفاروق . في هذا الوقت ، عقدت معاهدة سرية سياسية وعسكرية واقتصادية بين العاهلين . وقد نصت هذه المعاهدة ،على توحيد السياسة الخارجية للبلدين ، وارسال بعثة اخصائيين مصريين لشق الطرقات والمطارات الخ . واخيراً ، على ارسال خبراء ماليين، وفتح قرض بخمسة عشر مليون ليرة للبدء بالعمل . ولا يمكننا ان نعرف ، ماذا تطلب مصر بالمقابلة ، اذا افترضنا انها تملك الخبراء والمهندسين ، ولا ما سيعطيه ابن السعود من جهة ، فضلاً عن دعمه اياها سياسياً ، بعد ان تنازل عن كثير من ثروته البتروليه للولايات المتحدة وربما كانت هذه المعاهدة تعني ، ضمناً ، توثيق عرى صداقة اميركية جديدة . ذلك ، لان وراء الدول العربية يتمايل ، دائماً ، شبح الدول العظمى

في الطرف الآخر من شبه الجزيره، تحركت اليمن ،بعد قرون طويلة من الجمود والركود . ان الامام يحي ، كان طيلة مدة حكمه ، قد حفظ بلاده بعيدة عن التيارات الخارجية . لقد اغتيل في بداية ١٩٤٨ ، بتحريض من حزب « تحرير اليمن

الكبرى ، وكان رئيس الحزب احد ابنائه ، وكان منفياً الى عدن. وبالاتفاق مع هذا ، أعلن الامير عبدالله الوزير — وهو احد اصهرة الامير يحي — عاهلا شرعياً ، فألف مجلساً تشريعياً. وكانت اولى اعماله ، ان طالب باسترداد صداقة انكلترا ، واعلن رغبته للتعاون معها . ولكن ملكه زال . ففي ٥ اذار ، استولى الامير احمد ، بكر الامير يحي ،على العاصمة صنعاء وطرد المغتصب واصبح امام البلاد باسم « الناصر لدين الله احمد » . وميوله الاميركية معروفة . وبما ان اليمن ، ليست بلاد الذرة والقهوة فحسب ، بل هي ايضاً بلاد البترول ،الذي لم يستخرج بعد ، فانه ينتظر ان تكتشف قريباً ، معادن البترول على يد الولايات المتحدة فتزيد حينئذ الارباح التي تجنيها من العربية السعودية .

انها لمظاهر تبشر بالخير . انها تؤكد لنا ان الافكار الديمقراطية بدأت تدخل الاوساط التي كانت — سياسياً واجتماعياً — منعزلة . وان هذا الانعزال لم يعد مطابقاً للشروط الاقتصادية الحديثة (١)

---

(١) يريد المؤلف بمظاهر الخير ، ان ثورة اليمن هي ثورة تقدمية فتحت افكار اليمنيين ، نحو التحرر الشعبي الكامل (المعرب)

تناقض الوضع المصري

ان المركز الذي تحتله مصر في العالم العربي ، هو مركز غريب وعجيب. ذلك ان مصر - جغرافياً وعنصرياً وتاريخياً - ليست بلاداً عربية . فهي منفصلة عن البلاد العربية ببرزخ ضيق ، وسكانها الاصليون ، هم من القبط والفلاحين ، لهم صفات بعيدة جداً عن صفات العرب ، الذين يشكلون فيها ، كالاتراك ، اقلية ضئيلة . فالملك فاروق نفسه ، ليس عربياً ، فمحمد علي ، جده ، من اصل ارناؤوطي (Roumélie) . ومع ذلك ، فان مصر تأمل ان تكون على رأس الدول العربية . واذا بحثنا عن السبب في ذلك ، وجدنا أن ثروة مصر الثقافية ، ودرجة تطورها ، اذا اضيفتا الى وحدة اللغة والتقاليد ، هي وريثة الفتح العربي . وهذا ما يسمح لها ان تؤثر ، تأثيراً هاماً ، على البلاد العربية .

ان ثروة مصر ، تأتي من النيل . ولقد كتب المؤرخ هيرودوت Hérodote : « ان مصر هي عطاء النيل » . ذلك أن اراضيها التي تزرع بالقطن ، هي من رواسب النيل . وعند الانتهاء من سد اصوان ، ستؤمن لنفسها ، قريبا ، زيادة في القوى المحركة ، تزيد عن ضعفي حاجتها ، وترفع مستواها الصناعي . واذا عرفنا قيمة ثروات مصر الطبيعية ، وجدنا ان مصر ، من

الناحية السياسية، ترمي الى هدفين اثنين : ان تستقل تماماً عن وصاية انكلترا ، ثم تفرض نفسها وصية على الدول العربية . لذلك يجدر بنا ان ندرس موقفها ، مع انكلترا ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، مع الدول العربية .

بعد ان تخلصت مصر من نير الاستعمار العثماني، بمساعدة فرنسا وانكلترا ، وخسرت مساحات من حدودها ، عندما جرّب محمد علي ان يتوسع ،اصبحت مصر منذ ١٨٨٢ تحت الحماية الانكليزية، هذه الحماية التي اصبحت رسمية منذ كانون الاول عام ١٩١٤ . في عام ١٩٠٤ تنازلت فرنسا عن حقوقها لانكلترا ، كثمن لاطلاق يدها في مراكش . وكانت الحرب العالمية الاولى ، الحجة المناسبة لقطع كل علاقة تربط ، شكلياً ، مصر بتركيا . لقد قبلت تركيا في معاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) جلاءها التام عن البلاد ، وبقيت انكلترا ومصر ، منذ ذلك الحين ، وجهاً لوجه .

كانت الحرب – مثلها مع جميع شعوب الشرق الاوسط – قد خلقت عند المصريين ، روحاً وطنياً قوياً ، وفتحت امام انكلترا ، عهداً جديداً من المشاكل والصعوبات . ويكفي ان نذكر اسم زغلول باشا مؤسس الوفد ، وشعبيته ، وسجنه الذي عقبته ثورة ، اخمدها الجنرال اللنبي بالقوة . وما كاد زغلول ان يصبح طليقاً ، حتى طلبته لندن ليفاوضها . وفي ١٨ آب ١٩٢٠، وقع اتفاق ، اعترفت فيه بريطانيا باستقلال مصر ، مع الاحتفاظ بحقها في ابقاء جيوش فيها . لقد طالب المصريون بتجميع القوات

الانكليزية في منطقة قناة السويس ، وبالاشتراك بادارة السودان. ذلك ، لانه من المعروف أن من يملك السودان ، يصبح سيد مياه النيل ، ويصبح بامكانه ان يفرض المجاعة على مصر فرفضت مصر هذا الطلب ، وعادت الاضطرابات ، واوقف زغلول ونفي مجدداً . واجتناباً لعصيان عام ، تنازلت انكلترا ، في ٢٨ شباط ، عن الانتداب ، واعترفت من جديد باستقلال مصر . على أن هذا الاعتراف بالاستقلال الشكلي ، لم يضع حداً لمطالب المصريين. فقد ظلت البلاد مدة عشر سنوات ، مسرحاً للفتن الداخلية والاضطرابات والاغتيالات . واهم ما يذكر ، هو مصرع السير لي ستيك Sir Leé Stock (تشرين الثاني عام ١٩٢٤) وكان حاكم السودان العام ، والقائد الاعلى للقوات البريطانية . وعاد زغلول باشا رئيساً للوزاره ، بعد انتخابات ظافرة ، لكنه اجبر على الاستقالة وعادت المفاوضات ، في ايار ١٩٣٠ ، وتوقفت عند بحث قضية السودان . غير ان الحرب الايطالية - الحبشية ، اوصلت الى الحكم احزاباً اكثر اعتدالاً ، ووقعت معاهدة ٢٦ آب ١٩٣٦ ، وعدلت واصبحت نافذة المفعول في ٢٢ كانون الاول التالي . انها معاهدة تحالف توحدموقف كل من الطرفين المتعاقدين في حال وقوع معركة دولية . ولا تسمح لاحد المتعاقدين ، ان يوقع معاهدة ضد هذا الحلف . وفي حال وقوع حرب ، فان على الطرفين أن يدعما بعضهما بعضاً . وفي هذه الحال المحتملة ، يحق لانكلترا ان تستعمل المرافىء ، والمطارات ، وجميع وسائل المواصلات المصرية .وعلى العكس، فان جلاء الجيوش الانكليزية

كان مستثنى . بل ان هذه الجيوش ستبقى ، موقتاً ، في البلاد ؛ على ان تتجمع في منطقة قناة السويس . واخيراً اتفق الطرفان على ادارة انكليزية مصرية موحدة ، تدير شؤون السودان . وفي العام الثاني ، عقد اجتماع في آذار بمونترو Montreux ، بحث فيه نوع الحكم المصري واسفر عن الاعتراف بالغاء الحكم الاجنبي وفي ٢٦ ايار عام ١٩٣٧ ، قبلت مصر في جمعية « عصبة الامم »

ان تجربة الحرب الاخيرة كانت ، بالاجمال ، مقنعة . فمنذ اعلانها ، نفذت بامانة جميع التزامات المعاهدة . وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا ، وحجزت على اتباعها ، واستولت على ممتلكاتها ، ووضعت تحت تصرف انكلترا ، جميع ثروتها الاقتصادية والطرق الحديدية ، والمرافىء . لقد كانت ، نظرياً ، حيادية . فهي لم تعلن الحرب على المانيا ، الا في ٢٧ شباط عام ١٩٤٥ ، في البرهة الاخيرة ، كسوريا ولبنان ، اللذين لم يقوما بهذا العمل ، الا بغية الاشتراك في مفاوضات الصلح . ولم يكن حياد مصر يؤثر على انكلترا ، لانها كانت تملك ما ترغبه . حتى لقد كان بامكانها ان تستعمل جيش مصر . وقد خلقت مصر لنفسها بهذا الموقف ، جميلا على حليفتها . وكان الحياد بالنسبة لمصر ، شيئاً سهلا ، لم يضمن لها المستقبل فحسب ؛ بل كان تجربة ملموسة لاستقلالها .

كان النحاس باشا ، الرئيس الجديد للوفد رئيس وزراء مطيع وامين . وكان وصوله الى الحكم في شباط سنة ١٩٤٢ ، بواسطة الدولة الوصية ؛ ان لم نقل بضغط من قبلها . فأصبح

مشكوكاً في وطنيته ، بنظر قسم كبير من المواطنين . لكنه ظل في الحكم ، بمعاونة الانكليز ، حتى عام ١٩٤٤ ، ولم ينسحب الا بعد ميثاق الاسكندرية ، الذي انبثقت عنه الجامعة العربية .
وترك المركز للنقراشي باشا من الحزب السعدي المعتدل ومنذ شهر آب طلب النقراشي باشا الى البرلمان – وكان مدعوماً باجماع الشعب – اعطاءه الصلاحيات ، ليفاوض الانكليز بشأن انسحاب عام للجيوش ، وتعديل دستور السودان . وفي كانون الاول ، ارسل مذكرة الى حكومة لندن بهذا المعنى . فقبلت هذه مبدأ جلاء الجيوش ، وارتـأت تأجيلاً طويل الامد لقطبة السودان ، ليبتعد السودانيون انفسهم ، ويهيئوا دستوراً خاصاً لبلادهم .
وكانت الحكومة المصرية مدعومة من الشعب ، الذي كان يتظاهر احياناً بعنف . فرفضت هذه المقترحات ، وقررت رفع القضية الى منظمة الامم المتحدة ، وبحث القضية في دورة آب ١٩٤٧ .
واتخذ ممثلو الدول العربية موقفاً تهديدياً . لكن مجلس الامن لم يقبل بالتهديد ، واجل القضية دون ان يتخذ اي قرار . وهكذا اضطرت انكلترا ومصر ، ان تعودا الى مفاوضات مباشرة ، لتصلا الى حل يرضي الطرفين .

ومهما يكن هذا الحل ؛ فان مصر ستظل زمناً طويلاً ، معلقة بانكلترا ، من الناحية الاقتصادية ، رغم جهودها الجبارة ، لتقربها من الولايات المتحدة . فان رؤوس الاموال الانكليزية في مصر والممتلكات المصرية بلندن ، تشكل مبالغ ضخمة . فان ١٤٧ مليون ليرة من السندات ، الموضوعة في المصرف الوطني ، هي مقابل ستة ملايين من الذهب . واكثر من مئة واربعين مليون

ايرة صالحة للدفع ، لا تزال في الخزينة . إن مصر ، ولا شك ، قد اغتنت اثناء الحرب . فان القطن ، مصدر ثروتها الوطنية ، قد ارتفعت اسعاره الى اقصى حد . وإن انكلترا والهند ، هما من اهم زبائنها . وهي تأمل ، فوق ذلك — كباقي الدول العربية — ان تستخرج البترول ، لتزيد ثروتها . وان دراسات لاجل ذلك ، هي اليوم على قدم وساق بمحاذاة البحر الاحمر . ولكن يبدو ان تكاليف الايدي العاملة ستكون باهظة — لقد طلبت مبالغ تتجاوز الحد — مما حدا بالبحث الى نقل البترول السعودي عبر الصحراء الى مرفأ مصري . إن قناة السويس ذاتها ، التي سوف تعود الى مصر ، خلال العشرين سنة القادمة ، تبدو اقل قيمة ، لينتظر المصريون خيرها . لأنها ، بسبب تغلب الطيران والمواصلات ستضطر الى انزال رسومها . لذلك فان مصر ستظل بحاجة ماسة الى انكلترا .

اذا استندت مصر ، الى الجامعة العربية ، لتقوية موقفها في صراعها من اجل الاستقلال ، فان كل نجاح تحصل عليه من هذا القبيل ، يزيد مركزها مناعة ، مع البلاد العربية . ان الهدف الذي تصبو اليه ، هو ان تكون على رأس البلاد العربية فتقودها سياسياً . إنها ما زالت تأمل — ولكن بشكل آخر — بالحلم الذي راود الفراعنة على ممر الاجيال ، وجعلهم يصلون بفتوحاتهم ، مراراً ، الى فلسطين وسوريا ، حتى العراق . انه تجديد لتجربة محمد علي ، ولكن بسلاح آخر .

إن مصر ، التي سبقت جيرانها ، في كثير من مضامير الحياة ،

قد ضمنت لنفسها وصاية معنوية على البلاد العربية . فان صحفها الغنية الممتازة ، الحديثة ، والاكثر انتشاراً من الصحف العربية ، وافلامها السينمائية ، ومحطتها الاذاعية ، جميعها قد احتلت سوريا ولبنان وفلسطين، حتى العراق . لقد كان نفوذ مصر ، قبل الحرب العالمية الاولى ، نفوذاً دينياً . فمن القاهرة ، من جامعة الازهر ، حيث كان لاشعاعها اشد الاثر على العالم الاسلامي، انبثقت – عهد عبد الحميد – العقيدة القائلة « بالجامعة الاسلامية » . ومن هناك اخذت مركزها . وكان لفكرة بعث الخلافة في ظل مصر ، اثره القوي في هذه الحركة . لقد بحثت هذه القضية ، جدياً ، في اجتماع القاهرة عام ١٩٢٦ ، واعيدت للبحث في اجتماعات مكة والقدس (١٩٢٨ – ١٩٣١) . ولكن الملك فاروق ، انتبه الى ان عدم ثقة ابن السعود ، ستجعل تحقيق القضية غير ممكن بالنسبة الى هذا المغامر ، ففضل ابقاء المسألة طي الكتمان ، على ان يستعيدها في المستقبل ، حينما تسمح له الظروف .

اما اليوم ، فان القومية المصرية – العربية ، هي على بساط البحث. لقد كررت الدعاية المصرية تقول ؛ « نحن جميعاً مصريون ولاجل ذلك نسمى محمديين واقباط ، نحن جميعاً اخوة».وزادت متوجهة الى السوريين والفلسطنيين والعراقيين :

« انتم كلكم عرب » .

ان فكرة الجامعة الاسلامية ، لا تزال مستعملة ، ولكنها ليست سوى واسطة لصراع اضافي . ان الهدف لم يعد استقلال

الاسلام ، بل الاستقلال في صلب الجامعة العربية . والقاهرة هي مركز لعدد غير محدود من الجمعيات واللجان. ففيها تعقد الاجتماعات الدورية لتبحث القضايا العديدة ، وفي القاهرة ايضاً ، تألفت اللجنة السورية - الفلسطينية ، التي قادت ثورة (١٩٢٥ - ٢٦) في سوريا . وفيها كذلك عقد المؤتمر الفلسطيني، عام ١٩٣٩ ، ومثلت فيه جميع البلاد العربية ، واحتج بشدة على الهجرة اليهودية . ويجتمع فيها ايضاً ، ودوريا ، مؤتمرات علمية تمثل مبعوثين من جميع الدول العربية . وتألف فيها كذلك ، قبل الحرب الاخيرة بوقت قصير ، « الجمعية الطبية العربية - المصرية - العراقية » . والامثلة كثيرة على ذلك .

اما من الوجهة السياسية ، فقد رأينا مصر ، تتقرب من ابن السعود . وحتى الحرب الاخيرة، كانت تقف من البلاد العربية، موقف تريث وانتظار . وكانت سوريا ولبنان وفلسطين لا تزال تحت الانتداب . وكانت السياسة الخارجية للعراق وشرق الاردن، معلقة مباشرة ، بالسياسة الانكليزية . ولم تكن هي نفسها بكامل حريتها . اما اليوم ، وقد شكلت فيها الجامعة العربية ، وامينها العام مصري ، فانها ستحصل على الفرصة المؤاتية ، لتبسط نفوذها ، سياسياً ، بعد ان بسطته ثقافياً ودينياً .

الفصل الرابع

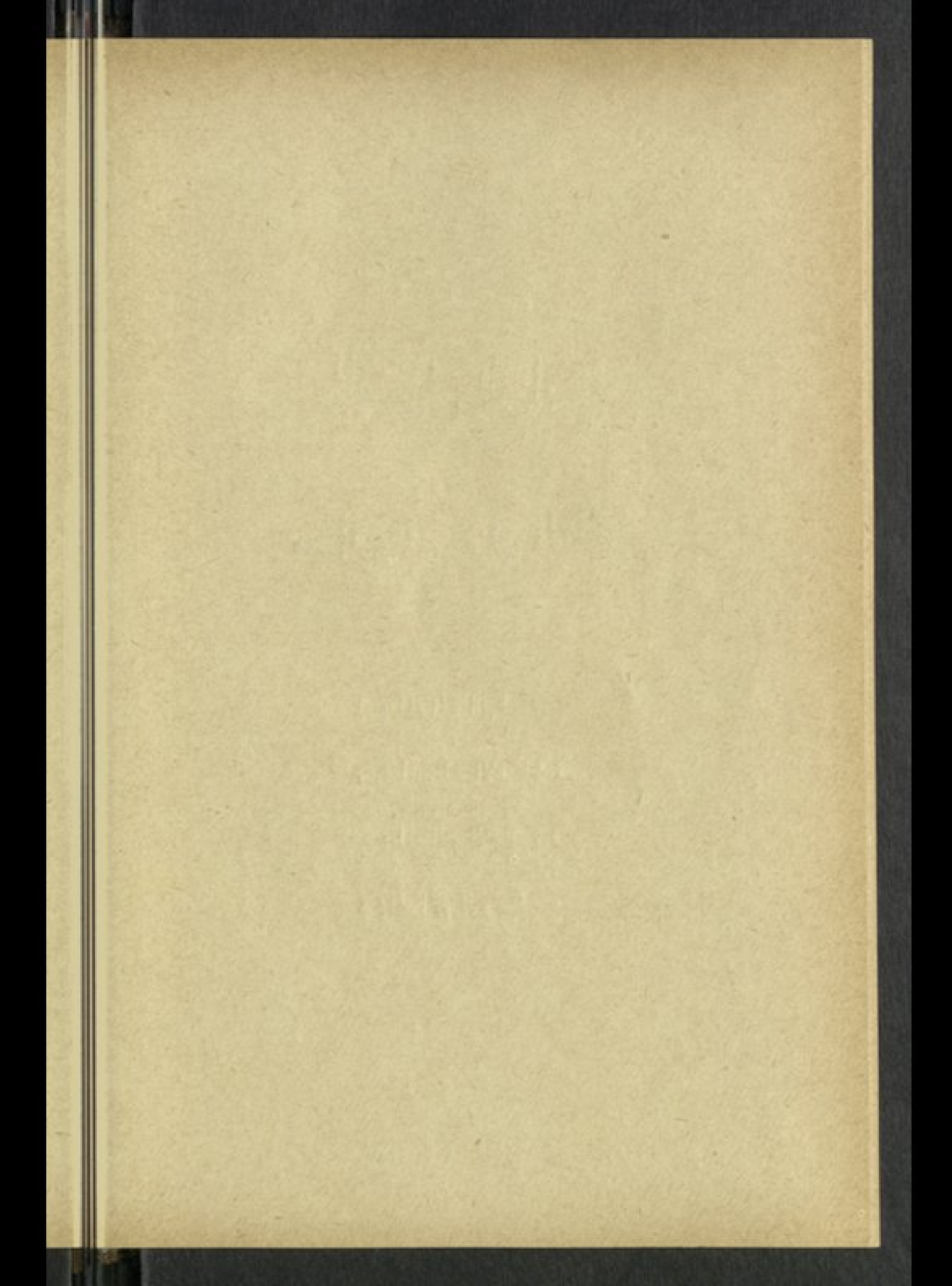
مصالح الدول العظمى

ا) المصالح الفرنسية

ب) المصالح الانكليزية

ج) المصالح الاميركية

د)المصالح الروسية



المصالح الفرنسية

ان مصالح فرنسا في الشرق الاوسط ، هي ، قبل كل شيء ، مصالح علاقات روحية . وتعود هذه العلاقات، الى عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الاماكن المقدسة ، وجُددت هذه المعاهدات على ممر القرون . وتحملت فيها فرنسا ، مهمة حماية نصارى الشرق . وقد كتب البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٩٨ يقول : « إن لفرنسا في الشرق رسالة ، اختصتها بها العناية الالهية ؛ « إنها رسالة شريفة، مقدسة ، نالتها ، ليس على ممر العصور فحسب ، « بل بواسطة معاهدات دولية . » إن ابناء الشرق الذين تثقفوا على يد رهباننا ، واعتنت بهم مؤسساتنا ومستشفياتنا ، تعلموا كيف يحفظون الجميل ، ويحبون فرنسا .

إن هذا الوضع الممتاز ، قد تبدل كثيراً بعد حرب ١٩١٤ ١٩١٨ . ففي تركيا ،حيث ألغيت جميع شروط الحماية للاماكن المقدسة منذ ١٩١٤ ؛ اندلعت الثورة الكمالية ، واتخذت موقفاً ضد الدين ومعاديا للعناصر غير التركية ، والحقت بمؤسساتنا الخيرية والتربوية

اكبر ضرر يمكن ان تتحمله مؤسسة . وتوقفت اكثر هذه المؤسسات عن العمل . امـــا في العالم العربي ، فان البلاد الموضوعة تحت الانتداب البريطاني ، قد تخلص قسم منها ، بفضل نفوذنا . وبالعكس فان موقفنا الذي كان منيعاً في سوريا ولبنان ، قبل الحرب ، استفاد كثيراً من وجودنا الحقيقي . لقد كانت مآثرنا فيها كثيرة وكان اكثر من ستين الف ولد وشاب ، يتلقون العلوم مـــن اساتذتنا ورهباننا . ولكي نقتصر على الضروري ، سنسمي اولا ، جامعة القديس يوسف في بيروت ، مع معاهدها في الاداب والحقوق والطب والعلوم السياسية والاداب الشرقية الخ .. وكليات التعليم الثانوي ، المتصلة بالاولى اتصالاً وثيقاً إن اكثر من ثلاثمئة طالب ، يتابعون تحصيلهم الجامعي ، واكثر من الف يتابعون تحصيلهم الثانوي . فالجامعة الاميركية التي دخلت البلاد بزهوها ، ورفعت اجورها : بشكل جعلها تخسر جاذبيتها واشعاعهـا . إن بعثاتنا العلمانية ، لها كليات ممتـــازة في بيروت ودمشق وحلب ، وهي تقيم علاقات طيبة مع جاراتها ، ولا سيما معاهد المريميين والعازريين إن كلية عينطوره في لبنان ، هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية . كما وان مؤسسات التعليم الابتدائي ، تعد اكثر من مئتي مدرسة للصبيان والبنات . اما مستشفياتنا ، فانها تقوم بواجبها خير قيام ، وهي منتشرة في جميع البلاد ؛ كمستشفى البرص في دمشق ، حيث تعتني راهباتنـا بخدمة المرضى ، بشفقة وعطف وغيرة . لكنهن طردن . بجهل وهمجية من قبل الرعـاع ، اثناء الحوادث الدامية التي وقعت في ايار ١٩٤٥ .

يجب ان نذكر ايضاً ، من الناحية الثقافية ، معهد الدراسات الشرقية في دمشق ، والخدمات الاثرية التي قدمتها المفوضية العليا . لقد اغلقت اليوم ابوابها ، ولكنها قدمت خدمات واسعة ، وحتى خارج سوريا ولبنان ، ورغم الصعوبات الناتجة عن وجودنا كاجانب فان مؤسساتنا تعمل دون ملل ، لتقوية النفوذ الفرنسي ، مثل معهد الدراسات العبرية في القدس ، ومعهد الدراسات الاسلامية في القاهرة ، والمدرسة الاكليريكية الدومينيكانية في الموصل ، والكليات المدرسية في البصرة والموصل .

وفي مصر ، فضلاً عن المدارس الفرنسية في الاسكندرية ، وهليوبولس ، والقاهرة ، فان لنا مدارس قبطية يديرها الجزويت ومدارس الفرنسيسكان . كما وان اخوة المدارس المسيحية ، يضمون في مدارسهم وحدها اكثر من سبعة آلاف تلميذ . واثناء اقامتهم الذكرى المئوية لبناء مؤسساتهم عام ١٩٤٧ ، وجه اليهم صدقي باشا رئيس الوزارة المصرية يومئذ ، رسالة ذكر فيها سعة اعمالهم الخيرية والتعليمية ، التي قدموها لمصر .

إن المدارس ، التي تديرها « الاليانس الاسرائيلية » ، تحوي كثيراً من الاساتذة ، الذين جاءوا من فرنسا ، وتنشر الثقافة الفرنسية في الشرق . إن في فلسطين عشرات من المدارس الابتدائية والثانوية ، ومدرسة مهنية ، ومدرسة للبكم ، والمدرسة الزراعية المشهورة « مقوه اسرائيل » Mikweh Israël ، التي تخرج اختصاصيين

للمستعمرات اليهودية . وفي سوريا ، فان المدرسة الاسرائيلية تضم الفاً ومئتي طالب في دمشق ، وستمائة في حلب . ويمكن ان نحصي بعض مدارس مماثلة في لبنان . وفي العراق اكثر من ستة آلاف تلميذ ينتسبون الى مدارس بغداد والبصرة والموصل وكركوك . وفي مصر اخيراً ، فان القاهرة ، والاسكندرية ، وطنطا ، في الدلتا ، تؤلف مركزاً لمدارس تضم بضع مئات من التلامذة .

ان انتشار لغتنا ، واشعاع ثقافتنا ، واعمالنا الانسانية، وعظمة الافكار والعبقرية الفرنسية ، هي الاعمال المكملة لنا ، وسوف لن نهملها ابداً .

فما هي ، اذن ، من جهة اخرى ، مصالحنا العسكرية ؟.. ان المنطقة السورية اللبنانية، تشكل مركزاً مثالياً ، للقوات المتحركة التي تكون ، حسب الظروف ، مستعدة للاشتراك في اي عمل ، من جهة مصر ، او من جهة البلقان ، وحتى باتجاه الشرق . ان هذه المنطقة بمركزها المتوسطي، يمكنها ان تكون قواعد للقوات البحرية ؛ كما وان الطيران يجد فيها جميع الاراضي ، وجميع الامكانيات الضرورية له .

ان تطور الحرب ، لم يسمح لنا باستعمال جميع الامكانيات ، او على الاقل في ما يختص بنا . لكن الحوادث التي عرضت في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، تثبت ان هذه المنطقة لم تفقد

شيئاً من قيمتها العسكرية (الستراتيجية) .

ومع ذلك ، قد لا يبدو ، أن وجود فرنسا في الشرق الادنى لأغراض استراتيجية، ولمصالحها الخاصة ، هو ، بالنسبة اليها ، حاجة مطلقة . فالوضع العالمي الحاضر ، لا يدع مجالا للامة الفرنسية ان تكون منعزلة عن غيرها . لان الاستيلاء على القواعد ، سيكون ولا شك ، عند نشوب المعركة . وسيكون لها ميزة خاصة ، وحرية تامة في العمل. وستكون هذه الحرية ، حينئذ للتشكيلات العسكرية ، التي تقوم باعمالها الحربية في هذا الميدان . وستنال جيوشنا الامكانيات التي منعت عن فرنسا وحدها . ولفرنسا حينئذ ، ان تعدل ، اذا رأت ذلك مناسباً .

ان مسألة مدارج الطيران ، مهما تكن مهمة ، فهي لا تبدو ذات اهمية حيوية. انها ولا شك ، ستكون اكثر ملائمة لمصالحنا، فانها تسهل النقليات ، وتسند طيراننا البحري. اجل! ان امتلاكنا اكثر ، للمدارج الممكنة ، في اكبر محور من العالم ، سيكون لمصلحتنا . ولكن يجب الا ننسى اننا لا نملك ، خارج سوريا ، باتجاه الهند الصينية ، اي مطار .

ولاسباب مماثلة ، يبدو ان مسألة تأمين طرقنا البحرية نحو مدغسكر ، والريينيون والشرق الاقصى، ليست متأثرة بوجودنا على شواطىء سوريا ولبنان . كما وان مرورنا عبر قناة السويس والبحر الاحمر ، رغم احتلالنا لدجيبوتي ، هو عرضة للتفتيش الانكليزي .

يبقى الآن مسألة مصالحنا الاقتصادية . إن الدور الروحي ، الذي تلعبه فرنسا في الشرق ، قد فتح امام تجارتها آمالا براقة ، وفي مدة طويلة ، لم يرَ في آفاق الشرق « إلا التجارة المدموغة بزهور الزنبق» . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،لاقت مشاريعنا ، في سوريا ولبنان ، ثروة كبيرة . ولم تكن هذه المشاريع قد تطورت كما كانت الحال في الخمسة عشرة سنة الاولى من الانتداب . ومع ذلك فقد كانت المشاريع التي افادت فرنسا عديدة : في المصارف - مصرف سوريا ولبنان ، والمصرف العقاري ، والشركة الجزائرية ... وفي المشاريع العامة : كهرباء بيروت ودمشق ، وحلب ، وحمص ، وقاديشا في لبنان . .ومرفأ بيروت ، ومرفأ طرابلس ، والمطار البحري في بيروت ... وسد حمص ، وادارة التبغ ، وخط حديد دمشق - حماه وتمديداتها ، وشركة راديو الشرق الخ .. إن قيمة رؤوس الاموال الخاصة ، قد ارتفعت عام ١٩٤٦ ، الى ١٥ مليار فرنك ، يضاف اليها الكميات التي قبضتها فرنسا من ميزانيتها ، لتصرفها على المصالح الاقتصادية .

وبالنتيجة ، فاننا رفعنا مستوى البلاد . وإن بعض مشاريع انجزت ، كانت سعادة كبرى للقوى المنتدبة . فمرفأ بيروت كان غير موجود ، تقريباً ، لدى دخولنا ، وقد اصبح اليوم يستقبل اكبر السفن ، التي تتمكن ان تحاذي الرصيف الفسيح . وإن سد حمص الذي بني على اساس سد روماني ، له الف وثلاثمئة متر من الطول ، وسبعة امتار من الارتفاع . كما وان ثلاثمئة كيلو متر

من القناة ، تجر المياه الى ١٥ الف هكتار وكان اكثر من مئتي الف هكتار قاحلة ، فصار بالامكان ان تصبح خصبة . لم نذكر هذه الارقام ، الا لنعطي فكرة عن سعة الاعمال التي انجزناها . كما يجب ان نذكر ايضاً ، شبكة الطرقات المدهشة ، التي تصل سوريا ولبنان فيما بينهما ، وعلى محاذاة الشاطىء . ان مشاريع كهذه ، تحفظ - على الاقل - حقوقاً للذين كان لهم الفضل في صنعها .

إن مصر هي احدى دول الشرق الادنى ، التي تستعمل رؤوس اموال واختصاصيين فرنسيين ، منذ زمن بعيد . وليس من احد يجهل اسم ف . دي ليسبس F. D. Lesseps ، ونجاحه الباهر في شق قناة السويس (١) . كما وان كثيراً من المشاريع كالمصارف ، والترامواي ، والكهرباء ، وشركات التأمين الخ .. هي بادارة فرنسيين ، او للفرنسيين حصة فيها .

في مدة الحرب ، اصبحت المصالح الفرنسية في مصر ، مثل مصالح الحلفاء في البلاد المحتلة من قبل العدو . ولكنها اعيدت الينا شيئاً فشيئاً . ومما هو عجيب حقاً ، ان مصر ، رغم تطورها ، ورغم التغلب الاجنبي ، فانها تميل دائماً الى طلب اختصاصيين

---

(١) يقال ان احد المهندسين الفينيقيين ، أشار على فرعون مصر بضرورة شق قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر . وقد فتحت تلك القناة . لكن العواصف الرملية عادت وطمرتها . اذ لم يكن هنالك من وسائل ترفع الرمل كما هي الحال اليوم في السويس (المترجم)

فرنسيين . ومع ذلك ، فاننا لا نصل الى المحافظة على مصالحنا دون عناء .

ان مسألة النفط في البلاد العربية ، لا تجعلنا مكتوفي الايدي. ففرنسا لا تجهز في اراضيها ، سوى ثمانين الف طن .. بينما ترتفع حاجاتها السنوية ، الى سبعة ملايين طن . ورغم انها دخلت ميدان النفط متأخرة ، فانها تأمل ان تجد في الشرق قسماً من حاجاتها . ولما اخرجت من منطقة الموصل ، اعطيت ، كمكافأة ٢٣٫٧٥ ٪ من شركة نفط العراق . وقد اعطت هذه الحصة عام ١٩٣٩ ، مليوناً ونصف مليون طن من النفط الخام ، اي خمس استهلاك فرنسا السنوي الاعتيادي قبل الحرب. ان حقول البترول الكائنة في العراق ، لا تخضع للرسوم الفرنسية ، ولكن فرعاً من هذه الانابيب ، يجتاز سوريا ويصب في طرابلس ، وكان ينقل قبل الحرب ، من مليونين الى ثلاثة ملايين طن كل سنة . كما وان محطات المضخات التي تعمل في الاراضي السورية ، والمرفأ البترولي في طرابلس ، هي بادارة فرنسية .

وبمقتضى اتفاق جديد ، عقد بلندن في حزيران ١٩٤٧ بين المساهمين ، تقرر فيه زيادة الانتاج ، بواسطة آبار جديدة ، وانابيب بترولية جديدة . لقد نقصت كمية الانتاج مدة الحرب ، فاصبحت (٣٫٦٠٠ طن عام ١٩٤١) . لكنها عادت فارتفعت عام ١٩٤٥ الى حوالي الخمسة ملايين . ويؤمل زيادة هذه الكمية الى ٢٥ مليون طن عام ١٩٥٢ . إن الاحتياط قدر باكثر من ٧٥٠ مليون

طن ، كما وان حصة كل من المساهمين سوف لن تحسب ، من الآن وصاعداً ، إلا على نسبة مؤية ثابتة ، ولكن بعد ان تؤمن سلفاً حاجة كل بلد لمدة خمس سنوات . ان حصة فرنسا سترتفع ، والحالة هذه ، من ستة الى سبعة ملايين طن . ويبدو ، من هذه الناحية ، أن مصالح فرنسا قد حفظت تماماً .

إن الشروط التي وضعت حداً للانتداب الفرنسي ، قد الحقت اذية كبرى في مصالحنا . لكنها تبدو اجراءات وقتية . فمن الناحية الروحية ، ان جميع مشاريع الرحمة التابعة لنا ، ومشاريعنا التعليمية ، لم تمس قط في لبنان . اما في سوريا ، فان بعض الخفايا قد دخلت مشاريعنا دون اي عناء . [1] ان مدارسنا ، التي اغلقت جميعها في سوريا ، قد عادت ، شيئاً فشيئاً ، وفتحت ابوابها : ونأمل ، بعد ان يهدأ الحقد وتزول الضغينة ، ان يحكموا لنا بالعدل . وحينما تتوقف فرنسا عن الظهور بزي الدرك والجباة – هذا الشكل الناكر الجميل – فانها ستستعيد وجهها التقليدي ، كصديقة خالية الغرض تنشر افكار الحرية الحقة ، والمدنية الانسانية .

واذا كانت فرنسا ، قد خسرت مركزها الستراتيجي ، فاننا

---

(١) يقصد المؤلف القانون الذي منع الاجانب في سوريا ، ان يملكوا مشروعاً ما ، دون ان يكون فيه حصة للسوريين . فاضطر الاجانب ان يشركوا معهم ابناء البلاد (المترجم)

وجدنا – رغم تأسفنا على ما حصل – ان ذلك لا يعني حاجتنا الحيوية اليه .

ان الدفاع عن مصالحنا الاقتصادية ، لا يتعلق قط ، باحتلالنا البلاد باي شكل من الاشكال ، لان هذه المصالح ستظل محمية ، بفضل الاتفاقات التي درست جيداً ، ونفذت . ان الاتفاق الفرنسي – اللبناني ، الذي عقد في شباط ١٩٤٨ ، قد اوقفا بين البلدين (الديون العسكرية للحكومة الفرنسية ، والاملاك العقارية الفرنسية التي اشتراها لبنان ، وتغطية النقد اللبناني) وبين الخطوط التي يجب الاتفاق عليها . ومما يؤسف له ان سوريا ، لم تر من واجبها ، حتى الآن ، ان تحذو حذو لبنان ، ولكن رفضها لن يكون ، ولا شك ، نهائياً . وفي جميع الظروف ؛ فان بامكاننا ان نثق بان صوت فرنسا سيظل مفهوماً . وان فرنسا باعمالها وحكمتها السياسية ، قد اعطت العالم البرهان الساطع ، على انها دائماً دولة عظيمة ، يمكن التفاهم معها .

المصالح الانكليزية

بامكاننا ، ان نختصر المصالح الانكليزية في الشرق الاوسط بكلمتين : طريق الهند ، والنفط . فالسياسة الانكليزية الثابتة ، هي تأمين السيادة على طريق الهند ، من البحر والبر والجو . ان

القيمة التاريخية لهذه الطريق ، ليست بحاجة الى برهان ، لانها اليوم تحافظ على قيمتها ذاتها . ورغم ان انكلترا ستضطر الى الجلاء عن الهند عام ١٩٤٨ ، فان مصالحها الاقتصادية ظلت كما هي ، يوم كانت تعلل الهند وعوداً بالاستقلال ؛ بعد ان اعلنت رغبتها في جعل الهند احدى الممتلكات (الدومينيون Dominion) .

الطرق البحرية : انطلقت انكلترا الى عدن ، التي دخلتها عام ١٨٣٩ ، بحجة ان بحريين بريطانيين ، قد نكل بهم فيها. ثم بسطت نفوذها شيئاً فشيئاً ، على جميع شواطىء جنوبي الجزيرة العربية . وقد توجت مشروعها عـــام ١٨٣٨ بهجرة بسيطة وعادية الى حضرموت . وفي عرض مكلة Makalla ، في الشمال الشرقي لرأس دجيبوني ، احتلت جزيرة سوقطرة Sokotra ، فقدمت لنفسها بذلك ، محطة ممتازة ، مع امكانية وجود معادن الفحم . واستولت على رقبة « باب المندب » بواسطة الجزيرة الصغيرة بيريم Perim ، ذات المركز الممتاز ، ولكن تنقصها مياه الشرب . وكاد احتلال « الشيخ سعيد » - النقطة الواقعة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة - ان يحسن وضعها كثيراً ، لكنها اضطرت ان تنسحب امام ثبات الملاكين ، ولا سيما اهالي عدن ، وامام رفض الفرنسيين ، الذين يملكون حقوقاً قديمة في هذه الاراضي . وما شعرت بنفسها انها اخطأت بعدم احتلالها دجيبوني والاريتريا ، حتى عوضت عن خطأها باحتلالها جزر كامارا ن Kamaran في البحر الاحمر . ومنذ ١٩٤١ ، احتلت - قليلا الى الشمال - جزر فارسان Farsan . واذا لم يكن لهذه الجزر اهمية جزر كامارا ن ،

لعدم قربها من الشواطىء ، فانها مع ذلك ذات قيمة كبرى .
وقد حقق لها بور سودان Port Soudan ، مواصلات حسنة مع السويس وبور سعيد. ففي حال عدم امكانية استعمال قناة السويس ، وقتياً ، او في حال انقطاع المواصلات ، بين مصر وفلسطين ، بمحاذاة الشاطىء ، فبأمكانها استعمال مرفأ العقبة ، الواقع في نهاية الساعد الشرقي من البحر الاحمر . وقد رفضت دائماً ارجاعه الى ابن السعود ذلك لان العقبة ليست مرفأ شحن لشركات ملح البحر الميت فحسب ، بل فهي تؤلف مع وادي العربة Ouadi Araba ، مواصلات سهلة وطبيعية نحو فلسطين .

ما دقت انكلترا اسفينها على طول هذه المسافة ، حتى اصبحت طريق الهند جد محمية . غير ان النقطة الحساسة في هذه الطرق هي ولا شك ، منطقة قناة السويس . ولن تنسى انكلترا قط ، الخطر الذي احدق بها ، يوم هاجمها الاتراك في شباط ١٩١٥ . وإن ما تهجس فيه ايضاً ، هو توسيع حماية القناة ، من الشرق ، ما امكنها ذلك . لان هذه الهواجس ، هي التي جعلتها تضع يدها على فلسطين وشرق الاردن – اللذين كان لامتلاكهما اسباب اخرى ، ولا سيما استيلاؤها على طريق الهند القديمة – وما استعاوت خليج العجم ، ثم العراق ، حتى ربحت البحر المتوسط بواسطة صحراء سوريا وفلسطين . ان هذه الطريق التي اهملت ، بعد فتح قناة السويس ، يوم لم تكن البضائع تنقل إلا على ظهور الجمال ؛ قد استعادت قيمتها ، منذ ان تطورت قوافل السيارات ، واصبحت تسمح بنقليات هامة . وهكذا اصبحت انكلترا تقبض بقوة على

هذه الطريق ، مثلها على الطريق البحرية .

إن ما يقرب من مجموع السواحل الواقعة جنوبي خليج العجم، هي تحت النفوذ او الاحتلال الانكليزي . وكانت سلطة عُمان ، اول منطقة فرضت عليها انكلترا حمايتها ، ومنها استولت على صحار Sohar القاعدة الجوية البحرية . ثم جاء بعدها دور شاطىء البيرات Pirates ، حيث كان يقوم بزيارة امرائها ، كل سنة ، الحاكم الانكليزي في الكويت . وبين شبه جزيرة قطر والكويت تملك المملكة السعودية زاوية لا يزيد طولها عن مئتي كيلو متر على الشاطىء . ان امير الكويت ، هو تحت الحماية الانكليزية منذ اواخر القرن الماضي ، اذ طلب الى انكلترا حمايته من الباب العالي ولامارة الكويت مركز تجاري هام ، لوقوعها بين طريق بغداد، وقلب البلاد العربية. واخيراً ، الى شمال شبه جزيرة قطر ،بسطت انكلترا حمايتها على جزر البحرين منذ ١٩٢٢ .

في العراق ، طريق وسكة حديد ، تصلان البصرة ببغداد . وفي بغداد طريق حسنة، تسمح بالاتصال بشواطىء البحر المتوسط ولا سيما مرفأ حيفا ، بواسطة عمان ، عاصمة شرق الاردن . وفضلاً عن هذه الطريق ، فان صحراء سوريا جميعها ، تقريباً ، صالحة لمرور السيارات .

اما في ما يختص بالطرق الجوية ، فان انكلترا جهدت لتؤمن مواصلات جوّية ، لا تبعد اكثر من ٥٠٠ كيلو متر . فاذا تركنا كراتشي ، على طريق الهند ، وجوادار Gwodar على شاطىء بالوتشستان Baloutchistan ؛ مررنا بالتتابع بمطارات صحار على

شاطىء عمان وجزر البحرين ، والكويت ، والبصرة ، والحبانية غربي بغداد ، والرطبة ، وعَمان ، ومطارات فلسطين . وليست اوتار انكلترا ، اقل متانة على الطريق الجنوبية ، رغم بعدها . فمن جزر كماران Kamaran ، تتصل بالخرطوم ، شبكة المواصلات المصرية . إن هذة الطريق البعيدة ، ليست ذات اهمية كبرى ، طالما ان بامكان انكلترا ان تستعمل الشعب الشمالية . ومع ذلك فانها تهتم بتثبيت اقدامها على جميع الجهات .

ان وجود انكلترا في العراق ، لا يضمن لها سلامة طريقها من البحر المتوسط حتى خليج العجم فحسب ، بل يغلق ـ امام اي عدو عرضي ـ الطريق التاريخية ، التي تصل بغداد بخانكين Kanikine وحمدان Hamadan ، حتى السهل الايراني ، ومنه الى هرات Herat ، وكابول Kaboul ، وخيبر وبشافر Peshaver حتى وادي الهند ، انها طريق الحرير ، طريق داريوس ، الطريق التي سلكها الاسكندر، الطريق الاكثر خطراً على انكلترا ، من طريق بغداد ـ البحر المتوسط ، التي اصبحت طرقها صالحة ، واصبحت قوافل السيارات تجتاز دائماً الصحراء السورية دون عناء ؛ او من طريق الاناضول التي اصبحت حسنة بفضل خط حديد بغداد، الذي يمر عبر الموصل بالحدود السورية . لقد استغلت هذه الطريق ؛ بفضل مقاومة البريطانيين ، منذ عام ١٩٣٩

هنالك سبب آخر ، له اهميته الكبرى ، وهو الذي دعا انكلترا منذ بداية هذا القرن ، الى المحافظة على سيادتها في هذه المنطقة : انه البترول . وكما ان البترول ضروري لفرنسا ، فهو اكثر

حيوية لانكلترا . ذلك ان ثرواتها في الطبقات الارضية ، هي قليلة ، ولم تجرب ان تزيدها . ورغم أن ثروة مستعمراتها قد ازدادت ،فهي غير كافية. إن بورنيو، وبيرمانيا،والهند تنتج لمجموعها ٦ ملايين طن فقط. لذلك وجب عليها ان تفتش في امكنة اخرى.

ففي عام ١٩٠١ ، حصل وليم نوكس دارسي William Knox D'arcy – احد منقبي الانكليز عن الذهب – على امتياز من الشاه الفارسي نصر الدين ، للتفتيش على الحقول البترولية في المنطقة التي تمتد شمال خليج العجم . في منطقة « مجيد سليمان » Medjide - Soleiman . فاكتشفت عام ١٩٠٨ اولى الابار ، وعام ١٩٠٩ تألفت الشركة الانكليزية الفارسية للزيت ، وتوزع انتاجها بين شركة « الشل » Shell والقيادة البحرية . وكانت الحكومة البريطانية . ممثلة بموظفين ، احدهما ، يمثل التاج ، والثاني يمثل البحرية ، ويجبي الضرائب . وبعد الانقلاب الذي اوصل الشاه بهلوي الى العرش تمكن هذا عام ١٩٣٢ ان يحصل من الشركة على ٢٠ ٪ من الارباح . لكن الشركة ظلت مستقلة بتجهيزاتها ووسائل نقلياتها ومدّ خط من الانابيب من منطقة « مجيد سليمان » ، الى الخليج الفارسي ، حيث تسمح مصافي عبدان – اكبر مصافي العالم – ان تنتج في مكانها الزيت الخام . ومُد خط آخر ، ربط معادن هذه المنطقة بمنطقة خانكين وعليوان Alevan في العراق . ان انتاج ايران الحالي من البترول يزيد سنويا على ١٥ مليون طن ، وبالامكان زيادة هذه الكمية . وتقدر كمية الاحتياط بالف مليون طن .

انه ليسير ان نعرف ان البناء على سيادة البصرة ، معناه فرض تفتيش دقيق على البترول . ومن هنا يمكننا ان نقدر الثروة التي تجنيها انكلترا . كما يجب ان نعرف ايضاً ، انه رغم غنى هذه المعادن ، فان تجربة حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ ، جعلتها تفتش على وسيلة اخرى لزيادة كمية البترول، الذي بامكانها دائماً توضيبه. لقد جربت انكلترا مراراً ، ان تحصل على امتياز في شمال ايران ، لكنها اصطدمت بالمصالح السوفيتية،فيممت وجهها شطر الموصل، ووضعت جميع مجهودها فيها .

لم تكن قيمة الموصل البترولية،ظاهرة لانكلترا ، عند توقيع اتفاقات سايكس – بيكو ، التي الحقت منطقة الموصل بفرنسا . لكنها عندما عادت الى دراسة وضبط حاجاتها ، تمكنت – كما رأينا – في معاهدة الصلح ، ان تعدّل تلك الاتفاقيات لصالحها.

في عام ١٩١٢ ، اسست شركة البترول التركية لاستخراج البترول من العراق . فكان ربع الانتاج لشركة شل ، والربع الثاني لشركة دوتش بنك ، والنصف الباقي للمصرف العثماني . وقبل الحرب العظمى الاولى بقليل ، وبعد محادثات قام بها رئيس الوزراء المقبل المستر تشرشل ، اعيدت حصة تركيا بكاملها الى انكلترا . وبعد الحرب ، ورغم ان عملية الاستخراج لم تكن بدأت بعد ، عادت هذه القضية للمفاوضات من جديد . فأخرجت تركيا التي طالبت بحقوقها ، من الشركة ، في معاهدة لوزان ، واصبحت الحصص في الشركة الجديدة ، « شركة بترول العراق » (I. P. C.) . على الوجه التالي :

٢٣،٧٥ ٪ تعود الى الدولة الانكليزية و٢٣،٧٥ ٪ الى شركة شل ، و ٢٣،٧٥ ٪ الى الدولة الفرنسية و ٢٣،٧٥ ٪ الى شركة ستندرد اويل (S. O. C.) ، وظلت الخمسة الباقية الى صاحب الامتياز السيد كولبانكيان M. Qulbenkian .

ومُد خطان من الانابيب ، اتجهت شعبة منهما الى طرابلس ، واجتازت الثانية شرق الاردن وفلسطين ، الى حيفا ، حيث بنى الانكليز مصفاة هامة .

لقد رأينا ان اتفاقاً خاصاً ، سمح بانزال الارباح الانكليزية ، فاصبحت ارباح انكلترا تساوي ارباح فرنسا .

وبفضل بترول العراق ، سيظل بامكان انكلترا – حتى في حال اغلاق قناة السويس – ان تضمن للبحر الابيض المتوسط ، كمية هائلة من المحروقات الثمينة ، على شرط ان تظل سيدة على العراق والمناطق التي تمر فيها انابيب البترول .

لم تهمل انكلترا معادن البترول التي تنبع من هذه المنطقة ، والتي يمكن استخراجها لمنفعتها . ففي جزر البحرين ، لها مصالح وحصص في شركة بترول البحرين (B. P. C.) لكن حاجات الحرب الاخيرة ، اضطرتها – كما سنرى – ان تتنازل عن قسم من حصتها الى الولايات المتحدة . وانتاج آبار البحرين اليوم يبلغ مليون طن في العام

وفي الكويت ، فان نصف شركة بترول الكويت (K. P. C.) في يد ستندرد اويل ، والنصف الباقي مع شركة الزيت الانكليزية – الايرانية (A. I. O.) . وفي قطر ، فان البحث

والتنقيب ، هما قيد التنفيذ . ولم يفلت من يد انكلترا ، سوى العربية السعودية وبعض الامتيازات التي اخذتها من الحجاز. لان ابن السعود ، وضع اتفاقياته مع الولايات المتحدة .

ان المصالح الاقتصادية لانكلترا في الشرق ، تنتهي ، طبعاً ، عند البترول . لكن مصالحها الاخرى ، بعيدة عن ان ترتفع الى هذه القيمة. فاذا صرفنا النظر عن قيمة الاراضي المروية في العراق، وممتلكاتها في مرافىء فلسطين ، حيفا ويافا ؛ فان انكلترا تستفيد من مصر ، حيث تملك عشرين شركة انكليزية مهملة ، برأسمال يقدر بمجموعه ، بعشر ملايين ليرة

ويمكن القول ، ان السيادة على طريق الهند ، وضرائب البترول، هما الحاجتان الرئيسيتان اللتان توجهان السياسة الانكليزية في الشرق الاوسط . ان خطأ انكلترا ، باحتلالها المناطق الغنية ، بالشكل العسكري ، يجعل موقفها – شيئاً فشيئاً – صعباً . لكن الحكمة التي دأبت عليها انكلترا ، تثبت نفوذها ، وتجعلها تبعد نفوذ باقي الدول العظمى .

المصالح الاميركية

يمكن القول ان الشرق الاوسط بالنسبة الى فرنسا وانكلترا، هو منطقة نفوذ اقتصادي عسكري . اما بالنسبة الى الولايات

المتحدة ، فهو منطقة « لا تتعدى النفوذ الاقتصادي » ذلك ان المصالح الاميركية في البلاد العربية ، هي مصالح محض اقتصادية ان مسألة القواعد ، في حال نشوب معركة ما ، فانها مسألة متعلقة عملياً ، بوجود انكلترا . إن رؤوس الاموال الاميركية ، تحتل مناطق واسعة ، بامكانها ان تفتح لها آمالاً ضخمة . كما وأن بعثة اميركية ، قد فتشت في منطقة العراق الاسفل ، اعلنت انها تدفع في مساحة عشرة ملايين اكر Acre من الاراضي الصالحة للزراعة ، ما لا يقل عن مئة مليون دولار اميركي ؛ فضلاً عن أن بوسعها ان تتعهد طرقات وسككاً حديدية ، وسدوداً ؛ ومصانع الخ ..

ومع ذلك ، فان اول شيء تهتم له الولايات المتحدة ، هو النفط ورغم انها تأتي الاولى في العالم بانتاجه (٢٠٤ ملايين طن عام ١٩٤٣) . فانها تخاف ان تنقص هذه الكمية ؛ لانها لا تستعملها اليوم ، الا في السيارات والطيران . واذا اطلعنا على التقديرات الرسمية ، رأينا ان الاستهلاك الاميركي للبترول ، سيزيد من الآن حتى عشرين سنة ، الى ٣٥ ٪ . بينما ينزل مستوى الانتاج ، الى ٣٠ ٪ . فيكون النقص ١٥٠ مليون طن . ان السيد آيكس (M. Ickes) منظم البترول الاميركي ، يذهب الى ابعد ، فيؤكد ان الولايات المتحدة سينفذ احتياطها في مدة خمسة عشر عاماً .

ان الولايات المتحدة ، تجد نفسها ، اذن ، مضطرة الى البحث عن امتيازات جديدة ، والاشتراك مع الشركات الحالية . إن « شركة البترول الاحتياطي » (.P. R. C) التي تأسست عام

١٩٤٣ برأسمال قدره مليون دولار ، تلك الصفات الرسمية ، لتدعم هذه السياسة .

اما في ما يختص بالامتيازات الجديدة ؛ فان الولايات المتحدة، قد القت مراميها ، على العربية السعودية ، البلد الذي لا يزال بكراً او شبه بكر . ان الاختصاصيين في الطبقات الارضية ، قد افادوا ان بالامكان عد الاحتياط في العربية ، من اغنى احتياط في العالم . وقد قدروا القيمة التي بدأوا باستخراجها الآن، بخمسمائة مليون طن . وهم ، منذ عشر سنوات فقط ، يستخرجون ثلاثة ملايين طن كل عام. ويأملون زيادتها بسرعة الى ستة ملايين.

منذ سنة ١٩٢١ ، حصلت شركة ستندرد اويل ، على رخصة للتنقيب في جزر البحرين . وخلفتها شركة بترول البحرين (B. P.) برؤوس اموال انكليزية اميركية . وعند بداية الحرب كان الانكليز يحتاطون بجميع انتاج هذه الشركة . ولما دخلت اميركا الحرب ، استرجعت حصتها ، ووكلت انكلترا في حفظها . وفي الكويت ، فان نصف شركة ستندرد اويل الاميركية ، يعود الى شركة بترول الكويت الانكليزية . غير ان الاميركيين ، يضعون كل وجودهم في منطقة الحساء . وفي عام ١٩٣٥ ، اخذت شركة كليفورنيا – العربية (C. A. C) امتيازاً على ٣١٨ الف كيلو متر مربع ، لكنها ، عام ١٩٣٩ ، تشاركت مع شركة تكساس اويل (T. O) ، واصبحت تعرفان باسم « الشركة العربية – الاميركية» . وجددت الامتيازات على ٦١١ الف كلم مربع ، على ان يبقى هذا الامتياز حتى عام ٢٠٠٠ وبدأوا يعملون

بكل نشاط . فاصلحوا مرفأ القطيف ، وبنوا مصفاة في « راس تنوره » وخلقوا مدينة جديدة في الظهران. انها حمى الذهب الاسود

في الوقت ذاته ، تسلمت شركة ستندرد اويل العربية (S. O. F. A) اراضي في عسير والحجاز ، وبنت مرفأ بتروليا في « الوجد » . وعام ١٩٤٢ ، بلغت هذه الشركة ، جميع الامتيازات الاميركية .

كان الوقت مؤاتياً ، لتضع اميركا اقدامها وسط الشركات القائمة . وكانت الازمات الاقتصادية ، والمالية ، والسياسية ، التي تعانيها انكلترا ، تضطرها الى القبول بذلك . وفي نهاية ١٩٤٦ ، قدم وفد اميركي مؤلف من شركتي السوكوني فاكوم ، وستندرد اوف جرسي ، واشترى ، لمدة عشرين سنة ، حصة كبيرة من انتاج النفط الايراني ، الذي تستخرجه الشركة الانكليزية ـ الايرانية ، وألفت الشركات الثلاثة ، شركة واحدة ، لتبني خطاً انابيب جديدة لنقل النفط .

كانت النتيجة حسنة لصالح الفريقين . فكان الانكليز ينالون الدولارات . وفتحت منافذ جديدة ، حققت زيادة في الانتاج . وربح الاميركيون كمية مرموقة من النفط ، وبدأت المكاتب الرسمية الانكليزية تتفاوض مع الدول العربية . لتوصل الى مرافىء البحر المتوسط ، بترول ايران والكويت ، وبترول العربية السعودية . ان شركة مد الانابيب عبر البلاد العربية (T.A.P. Line) تفاوض الان من اجل مدّ الانابيب بين العربية السعودية ، والبحر

المتوسط ، فتجتاز سوريا ، وتنفذ في مرفأ لبناني .

اذا اصلح هذا التفاهم – بين الدولتين الكبيرتين – الوضع الاقتصادي للواحدة ، اصلح دون شك، الوضع السياسي للأخرى. انه يشدد مركزهما امام البلاد العربية .

المصالح الروسية

اذا كان الشرق الاوسط ، بالنسبة لاميركا ، « منطقة ضمان اقتصادي » ؛ فانه بالنسبة الى الروس، « منطقة ضمان ستراتيجي». اننا نعرف باي صبر ، واي استمرار ، واية مرونة ، يعمل الاتحاد السوفييتي . انه – فيما هو يخلق حوله ، ستاراً حديدياً دفاعياً ، بمعونة البلاد المعلقة بفلكه – يعمل ليحقق،مع رفاقه ، حلم القيصرية القديم : المنفذ الى البحر المتوسط . ويعني هذا ، بالنسبة اليه ، ان يجانب تركيا من الشمال ومن الجنوب ، بغلطة تسمح له بذلك . ولا يمكنه الوصول الى هذا الهدف ، الا باشخاص دخلاء. لذلك– ودون ان يدخل في معركة سافرة ، مع باقي الدول العظمى ، بعد ان قررت احداها عدم السماح له بالعمل – نجده يغتنم الفرص المؤاتية ليظهر عطفه ، تارة للحكومات في صراعها ضد الاستعمار الرأسمالي ، وطوراً آخر ، للشعب ؛ حينما يفكر هذا باقامة دولة

اشتراكية ، ستكون في البــلاد العربية ، بعيدة عن الدول الديمقراطية .

وفي كل عام ، يستعيد بصراحة وسهولة ، مظاهرة ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٧ التقليدية التي دعت فيها اول حكومة سوفييتية ، العالم الاسلامي ليعلن الحرب ضد المغتصبين الوطنيين . ان محطة الاذاعة ، والكتيبات ، والنشرات السياسية ، التي توزع بالالوف ، تخلق له جواً ملائمـاً . ان جمعيات « اصدقاء الاتحاد السوفييتي » قد اسست في المدن . انه عمل رزين ومتين ، يمتد شيئاً فشيئاً .

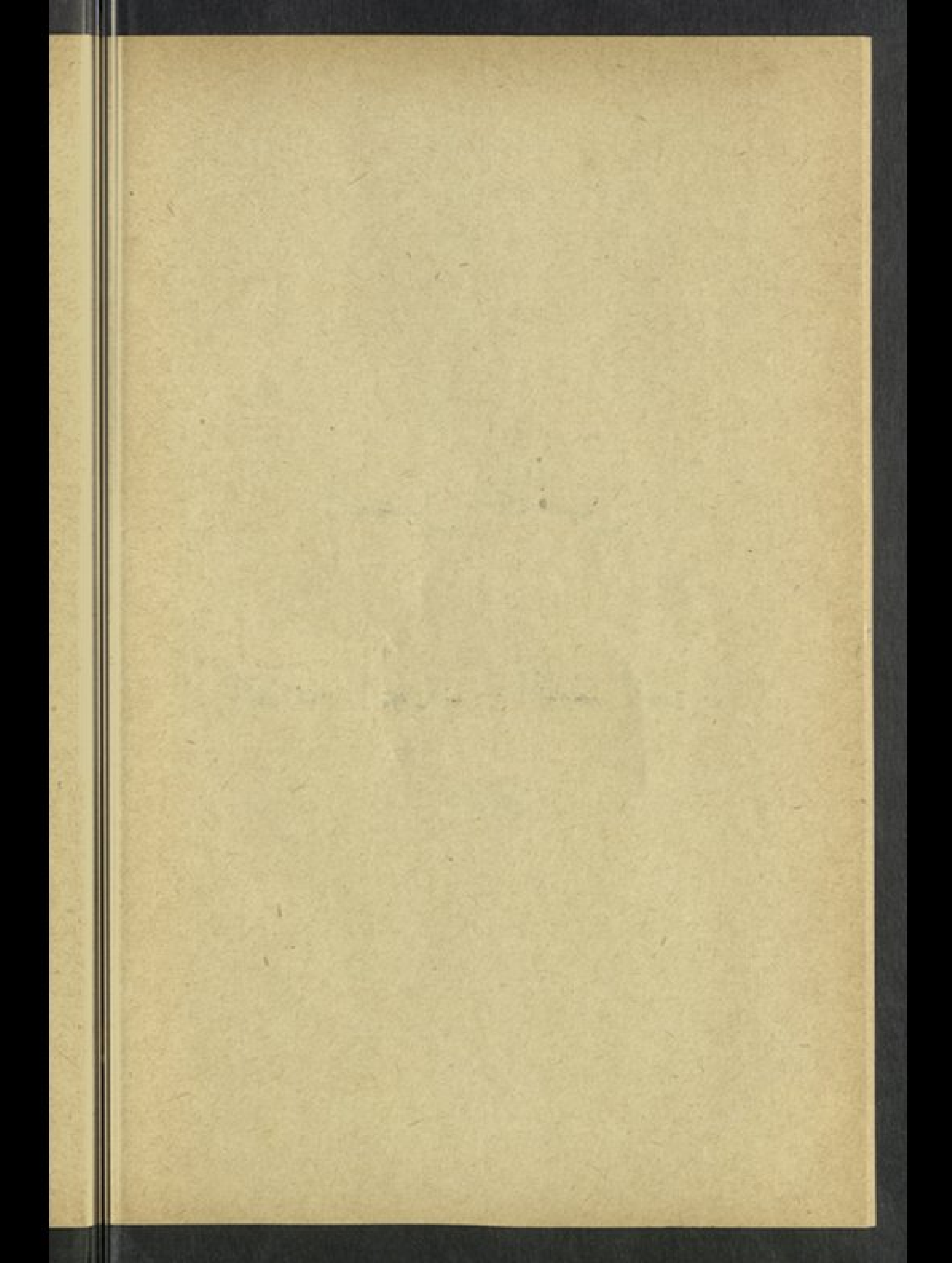
ان الاتحاد السوفييتي يفتش ، في الوقت ذاته ، عـلى استعمال الاساليب التي تجمعه مع بعض الكتل : الصلات الدينية بين الروم الارثوذكس ، والكنيسة الروسية ؛ بزيارات يتبادلها البطاركة . وصلات عنصرية ، بين الجمهورية السوفييتية الارمنية ، وارمن الشرق ، الذين الح كاثوليكهم الاكبر ، بان يقيم علاقات طيبة مع الاتحاد السوفييتي . وهو يهتم ، في الوقت ذاته ، بالاكراد ، فيصبح والحالة هذه ، حامياً للأقليات . فبواسطة ازربيجيان ، جرّب ان يتقارب مع البلاد العربية . وقد سند ثورتها التحريرية التي قامت عام ١٩٤٥ ، واخمدت ؛ فاظهر حالاً عدم اهتمامه بالقضية . وقد نال ، كثمن لاقناعه عن المساعدة ، وعداً بتأليف شركة ايرانية سوفييتية ، لاستخراج البترول من شمال ايران . وهو وعد خادع وعدت به الحكومة الايرانية ، تدعمها الولايات المتحدة . وما

زالت حتى اليوم تؤجله وتماطل فيه على ان الاتحاد السوفييتي[1]، لم يتنازل عن العمل في هذه المنطقة . فقد وجد في مشكلة فلسطين ، فرصة لتدخله . إن سياسته صبر ، متغيرة بشكلها، ثابتة في مراميها انه يكتفي اليوم ، بان يهيء الجو ، ويخلق المناخ الذي يؤاتيه ، ليدق اسفينه ؛ حتى اذا جاء اليوم المناسب ، انتقل — بهذا الشكل او بذاك — الى العمل .



الفصل الخامس

الاتحاد العربي – الجامعة العربية



ولدت الجامعة العربية، من حركة مزدوجة ، سياسية ودينية. فقد اسفرت نتائج الاتصالات بين الحربين العالميتين ، عن مواثيق صداقة بين البلاد العربية،من جهة ، ومن جهة ثانية،عن معاهدات، كان لها ، اولا ، صفات محض دينية اسلامية ، ثم اتخذت ، فيما بعد، شكلا سياسياً عربياً .

إن الالتباس بين هاتين الفكرتين ، قد ذكر مراراً . لان المبادىء العروبية والاسلامية ، يكمل احدها الآخر . فالمعاهدة التي عقدت بين ابن السعود والامير يحيى، في ٢٠ ايار سنة ١٩٣٤، قد اتخذت الصفات ، التي اتخذتها غيرها من المعاهدات ، واعلنت فيها العبارات الرئيسية. إن الاستهلال، قدحدد المعاهدة : «بمعاهدة اسلامية ، واخوة عربية » . فالمادة الاولى ، وضعت قانوناً ،ينص « على ان بين الملكين وبلاديهما ، اخوة عربية اسلامية » كما نصت المادة السادسة على ما يلي« إن الروابط الاخوية الاسلامية ، والعنصر العربي ، تجعل من البلدين امة واحدة » .

إنها المرة الاولى التي تظهر فيها القومية العربية بوثيقة رسمية ، وبشكلها الواضح . إن دخول العراق في هذه الكتلة ، بدّل الفكرة الاتحادية ، بفكرة الوحدة ، وفتحت المعاهدة ابوابها ،منذ ذلك الحين ، امام جميع الدول العربية المستقلة ، والتي ترغب في

الدخول لكن المبادىء الدينية والثقافية ، ظلت دون ان تتغير .

ولمـــا اراد الأمير يحيى ، ان يدخل في هذه المعاهدة الجديدة اصر على ضرورة « خلق وحدة اسلامية ، واتحاد عنصري » . واظهر حاجة البلاد العربية للعمل في سبيل تآلف الثقافة الاسلامية العربية .

إن الميثاق سيكون ، عملياً محدوداً بالعربية السعودية واليمن والعراق . اما سوريا ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، فهي لا تزال تحت الانتداب ، ومصر منهمكة في مفاوضات عسيرة مع انكلترا ، لتحصل على استقلالها التام . امـا في ما يختص بصغار امراء العرب ، فان المعاهدات التي تربطهم بانكلترا ، تنقل الاتفاق **« اليهم والى ذريتهم من بعدهم »** بالا يعقدون معاهدات مع غير انكلترا ، من الدول العظمى. إن ميثاق الاخوة العربية ، لم يكن التجربة الاولى لاتحاد البلاد العربية، على اساس العنصر والدين. كما ان جميع المواثيق، والمعاهدات، التي تربط البلاد العربية ، فيما بينها – وقد حللناها سابقاً – لم تكن سوى نزعات استقلالية ، كانت نتيجة الحرب العالمية الاولى. انها تمثل جهود الدول العربية في سبيل الاتحاد، غير ان هذه الجهود المشتتة، لا يمكنها ان تحصل إلا على نتيجة متوسطة. ولاجل تناسقها ، يلزمها عنصر اداري. انه دور انكلترا!.

في الوقت ذاته ، فان مؤتمرات « الاتحاد الاسلامي » ، والتي عقد احدها في القاهرة ١٩٢٦ ، والثاني في مكة ١٩٢٨ ، قد تحولا في مؤتمر بلودان ، قرب دمشق ، واصبحا مؤتمراً عربياً صرفاً . واخيراً ، فان عبد الرحمن عزام باشا ، الامين العام للجامعة العربية،

قد حدّد في مؤلفه الشهير : « العرب شعب المستقبل » ، نظرية القومية العربية .

ان فكرة الوحدة ، ظلت ، في مطلع الحرب الاولى ، املاً ضعيفاً مبهماً . كما وان مشكلة العراق ، اثبتت ان هذه الوحدة ، هي وقتية . ان كل بلد من البلدان العربية ، كان يقف لوحده ، شاعراً بضرورة الاتحاد ، دون ان يتمكن من ايجاد نقطة البداية في العمل . ان انكلترا ، التي لها اكثر المصالح في البلاد العربية ، مصالح من جميع الانواع ، لا يمكنها ان تدع البلاد العربية تعمل بدونها ، او ضدها . وقد اغتنمت مركزها الممتاز ، الذي تبوأته اثناء الحرب ، في البلاد العربية ، (ما عدا السعودية واليمن) فوضعت الخطوط الرئيسية لاتحاد جديد ، وكانت تأمل ان تكون المحركة لهذا الاتحاد ، والموجهة ، والرابحة في آن واحد . كما وان هذا ، لم يمنعها قط ، ان تلعب – في صلب الاتحاد او خارجه – بالاوراق الهاشمية .

في عام ١٩٤٣ ، وجه السيد ايدن ، وزير خارجية بريطانيا ؛ في خطاب له ، توصياته الى الدول العربية ، لتتآلف . وكانت المفاوضات الاولية ، بعهدة نوري السعيد ، رئيس وزراء العراق ، والصديق الامين لانكلترا ؛ والذي اصرّ بان يبدأ محادثاته مع صديق آخر ، ليس اقل امانة منه . انه النحاس باشا ، رئيس وزراء مصر . وفي اواخر عام ١٩٤٣ ، والاشهر الاولى من عام ١٩٤٤ ، بدأ في القاهرة ، تبادل الزيارات بين الوزراء ، ورؤساء الدين ، والعملاء البريطانيين الاختصاصيين . وفي ايلول من السنة ذاتها ،

عقد اخيراً في الاسكندرية ، مؤتمر تمهيدي برئاسة النحاس باشا .

كانت مصر والعراق وسوريا ولبنان والاردن ، ممثلة في المؤتمر اما السعودية واليمن ، اللذان لم تكونا اتنقا كثيراً في هذه المنظمة بعثا بمندوبين شخصيين مراقبين فقط . وكان يمثل فلسطين ، مندوب عربي غير رسمي

واسفر المؤتمر ، عن بروتوكول ، يأملون من ورائه ، تأليف « جامعة الدول العربية » يقودها مجلس مهمته تنفيذ الاتفاقات التي تعقدها الدول العربية ، فيما بينها ، وتعيين مواعيد الاجتماعات ، لتشدد علاقاتها ، وتنظم مناهجها السياسية بالتعاون بينها ، ولتحافظ على استقلالها وسيادتهـــا ، ضد كل اعتداء ، وتهتم ، بوجه عام ، بشأن كل جميع البلاد العربية ، ومصالحها .

واضيف الى هـذا المجلس ، لجنة من اعضاء الجمعية التأسيسية ، مهمتها « ان تضع دستوراً لمجلس الجامعة ولتبحث بالقضايا التي تشكل مواد الاتفاقيات ، التي ستعقد بين الدول العربية » واخيراً الفت لجان من الخبراء ، تهيء تعاون البلاد العربية ، في القضايا الاقتصادية ، والمالية ، والشؤون الثقافية ، والاجتماعية ، والصحية.

وبت المؤتمر في قرارين لهما الصفات الخاصة والمستعجلة . اولهما الوقوف ضد الهجرة اليهودية ، وتأليف دولة يهودية ، وهي المسألة الوحيدة ، التي اتفقت كلمة العرب حولها . وثانيها ضمانة استقلال لبنان بحدوده الحاضرة. لقد تفاهم المؤتمر حول هذه الناحية ليكفل للنصارى في لبنان ، الذين يخافون الالتحاق بدولة محض عربية ، او تقسيماً يتركهم منعزلين ، جائعين ، ودون دفاع . إنه لتدبير

حكيم ، يأمل منه المؤتمر ، الحصول على رضى اللبنانيين العام ؛ ويريد ، من ورائه ، ان يبرهن للعالم ، ان الجامعة العربية ، ليس لها الصفة الاسلامية .

لم يلاقِ البروتوكول قبولاً حسناً . فبعضهم رأى ان الاتحاد لا يفي بالغاية . وبعضهم الآخر ، عكس ذلك : رأى ان الحقوق التي تتمتع بها الدول الاعضاء ، ليست بكافية ، خاصة ، في ما يتعلق بالاتفاقيات التي توقع بينها . إن اكثر الوزراء الذين اشتركوا في إعداده قلبوا . وكانت البداية بالنحاس باشا .. إن كل شيء يجب ان يبدأ من جديد . ولم يكن الملك فاروق متأثراً ، دون شك ، من عدم نجاح محادثات كان هو بعيداً عنها . فجدد المفاوضات تحت امرته ، وهيأ الجو بمهارة ، ونال موافقة عامة من جميع الدول العربية ، بما فيها ابن السعود والامير يحيى ، اللذان لم يوقعا بروتوكول الاسكندرية .

بدأ المؤتمر الجديد ، في « هليوبولس » في آذار سنة ١٩٤٥ ، وكان يرئسه النقراشي باشا . وكان يمثل سوريا ولبنان وشرق الاردن رؤساء وزرائهم ، ويمثل العراق وزير خارجيته ، ويمثل العربية السعودية ، معاون وزير الخارجية . ولم يرسل الامير يحيى ممثلاً ، لكن الميثاق ارسل اليه ليوقعه .

كان دستور الاتحاد . الذي سمي « بالجامعة العربية » مؤلفاً من عشرين مادة وبعض ملحقات . وكان هدف الاتحاد ، كما حددته المادة الثانية والعشرين ، حصر العلاقات بين الدول الاعضاء والتعاون في اعمالها السياسية ، لتحقق تآزراً قوياً بينها ، والمحافظة

على استقلالها وسيادتها ، والاهتمام الجدي بجميع القضايا التي تمس البلاد العربية مصالحها » . وشكل مجلس مهمته « تحقيق اهداف الاتحاد ، والسهر على انجاز العهود المعقودة بين الدول الاعضاء » . وهنالك لجان ، مهمتهـــا درس القضايا الاقتصادية ، والمالية ، والثقـافية الخ .. وقد منعت بعض مواد الدستور ، اللجوء الى السلاح ، وحدّدت الاسلوب الذي يجب اتباعه ، في حال حصول خلاف ما ، بين بلدين . كما قررت هذه المواد ، احترام سيادة كل دولة ، وشكل الحكم فيها .

وعين امين عام ، له رتبة السفير ، مركزه القـاهرة ، يساعده امين معاون ، وهذان يشكلان العناصر الدائمة للاتحاد . وكلف بهذه الاعمال عبد الرحمن عزام بـك ، النائب السابق في المجلس النيابي المصري ، وممثل مصر السابق في العراق والحجاز ، ووزير مصر للشؤون العربية . لقد قضى ثماني سنوات في ليبيا ، كان خلالها احد زعماء الثورة ضد الايطاليين . وقد اسس بعد حرب ١٩١٤ دولة مستقلة في طرابلس الغرب ، فحكم عليه بالاعدام ، ولكنه تمكن من الهرب . وهو - كما اسلفنا - مؤلف « العرب شعب المستقبل » . انه عضو متحمس للاتحاد العربي ، وسيكون المحرّك الحقيقي للجامعة .

ليس هنالك من فرق بـين « دستور الاتحاد » « وبرتوكول الاسكندرية » ، سوى ان المادة التي تخول المجلس ان « ينجز » الاتفاقيات المعقودة بين الدول ، عدّلت واصبحت « أن يسهر على انجازها » . واعطى الحرية ايضاً للدول الاعضاء في ما يختص بنتائج

الاتفاقيات ؛ كما اعطاها الحق (المادة ١٨) بان تنسحب من الاتحاد وقد تبنى المؤتمر هذه المادة ايضاً بالاجماع .

ان البروتوكول ، ودستور الاتحاد ، قد بذلا جهدهما في بعض الاحتياطات ، التي نذكرها ، ههنا ؛ وهو ان يوافق بين خصائص كل من الدول ، ووحدة مصالحها.

ويمكن التساؤل ، بعد تجربة ثلاث سنوات، اذا كانت النتيجة قد ايدت هذا الامل . كما يمكن اختصار ميزان الجامعة ، اليوم ، بعدد من الحلول ، ولا سيما الخطب والتصاريح البارزة ، التي كانت تصدر ، اكثر الاحيان ، عن امينها العام ، المعروف بسخائه فيها .

منذ ٤ نيسان سنة ١٩٤٥ ، اي غب اكمال دستور الجامعة ، ادلى ممثلو الدول العربية ، في لندن ، بتصريح ، بعد موافقة حكوماتهم ، جاء فيه : إن الدول العربية ، اذا خلقت لنفسها كتلة ، **«فستكون اول ما يقبل ، عملياً ، بالسياسة الجديدة ، التي اصبحت هدفاً للمناقشات ، وتساعد في وضع اسس المنظمة العالمية الجديدة»** . انه لتصريح غير واضح ، لكنه طموح . ويفهم منه ان البلاد العربية بتنظيمها ، تضع الحجر الاساسي ، لمنظمة عالمية ، وتقدم بنفسها مثلاً على ذلك .

ان القضية التي عززت بالتصاريح اللاحقة ، كانت ، قبل كل شيء ، قضية فلسطين . فالعرب باجمعهم على اتفاق . ومنذ وضع الدستور ، خصصت هذه القضية بمادة جاء فيها : «إن بقاء فلسطين تحت الانتداب ، لا يمنعها من الانتساب الى الجامعة» . كما اعلنت

تصريحات عديدة ، ودورية ، بانها ستظل دولة عربية ، ولن تجزأ منها قطعة واحدة ، وتقدم لليهود . وقد وجدت الجامعة قضية اخرى تساعدها على الدعاية لاستقلال البلاد العربية ، او «استعبادها من قبل الاجانب » . فكما سندت السوريين واللبنانيين ، ضد فرنسا ؛ فانها تدعم كذلك مصر ، ضد الانكليز . وفيما هي تلعب دورها الكلاسيكي ، بين العروبية والاسلامية ، كانت تهاجم دون هوادة ، « التسلط العسكري والاستعمار الفرنسي » . واعلنت بشدة حرية افريقيا الشمالية ، حيث لاقت تصريحاتها قبولاً ، وخلقت انفجارات ضدنا . وامرت الجنود المسلمين الذين يعملون في الهند الصينية ، تحت العلم الفرنسي ، ان يوقفوا صراعهم ضد الفياتمينه . وسندت ، دون تحفظ ، الد اعدائنا الذين كانوا يجدون في مصر الحماية والملجأ . لقد اقتبست ، كدعاية لعملها ، الاحاديث الاسلامية الموجهة ضد الاجانب ، لتكون خميرة مناسبة ، للذين تريد اقناعهم بالخطر المحدق بهم .

ان الجامعة العربية بامكانها – من الناحية الثقافية والدينية – ان تحصل على نتائج هامة ، على شرط ، الا تكون مخالفة لاهدافها السياسية ، والدينية ، والثقافية . والا تكون متناقضة ، بعضها مع بعض . ولا بد من تقدير جهودها .

إن ما حققته الجامعة اقتصادياً ، يبدو مبهما . ذلك انه ليس من السهل الموافقة بين اقتصاديات مختلفة ، كاقتصاديات البلاد العربية ، ومرتبطة – في الوقت ذاته – مع مصالح الدول العظمى المتباينة لقد اعطت بريطانيا دليلاً حسناً ، اذ حولت للجامعة ، خدمات

« شركة الشرق الاوسط للتموين » M. E. S. C ؛ تلك الشركة التي اسستها مدة الحرب، لتزيد وتنسق الانتاج في الشرق الاوسط وتنظم الاسواق التجارية والنقليات الخ . وانه لمن السابق للأوان ان نعرف الان ، المدى الذي توصلت اليه الجامعة في تنسيق هذا الجهاز ، الذي تعرف نتيجته من الاسلوب والصلاحيات الممنوحة للاختصاصيين . ان الوضع الاقتصادي – كباقي الاوضاع – يرتبط بمصلحة كل دولة من الدول العربية ، وبنظامها الاقتصادي الخاص. فان ابن السعود قد اعلن ، غب قرار منظمة الامم المتحدة المتعلق بفلسطين ، انه مهما حدث ، « فسيضطر ان يحمي ويحافظ على الامتيازات الاميركية للنفط في بلاده » . وعلى هذه الفكرة، نذكر القرارات التي اصدرتها الجامعة مراراً ، والقاضية بمقاطعة الانتاج اليهودي ، لكنها لم تعط نتيجة تذكر

إن الاختلاف بين النظام الاجتماعي ، هو نتيجة لتباين النظام الاقتصادي ، وتنتج عنها الصعوبة في حل المشكلة . ونشهد اليوم في البلاد العربية ، التي بدأت تبني صناعتها ، ولادة طبقة من العمال Prolétariat ، بدأت ، شيئاً فشيئاً – تحت تأثير دعاية شديدة – تنتظم وترفع كيانها . ولا نشك بان هذه الطبقة ، سوف لن تتساهل في انشاء دولة يهودية. كما وان قادة الدول العربية الحاليين ، يخافون اليوم من انتشار العدوى بين هؤلاء العمال ، فيقلبون النظام القديم .

لذلك يظهر بوضوح ، التقصير السياسي في بناء الجامعة. وليس هذا نتيجة – كما يقول برنو (M· Pernot) « للقصور الخلقي

للشعوب الشرقية في تنسيق قواها وتنظيمها » . بل – كما رأينا – من التناقض بين الحكام ، وطموح الزعماء ، والتباين العنصري ، والتباعد في التقاليد ، بشكل واضح مكشوف . إن كل دولة ترغب في الوحدة ، على شرط ان تكون هذه الوحدة في عهدتها . فالصراع الصامت الدائم – رغماً عن كل اتفاق – بين ابن السعود والهاشميين ، له قيمته الخاصة في قضية الوحدة . كما وان عزيمة الملك عبدالله ، للعمل من اجل سوريا الكبرى ، لم تهن بعد رغم معارضة خصومه . لقد اعلن ابن السعود ، في خطاب رسمي ، قائلاً بهذا الصدد : « ليس هذا بمشروع عربي ، لكنه مشروع اجنبي ، ولذلك فان المملكة السعودية ، في حال تحقيقه ، ستعمد الى القوة لتمنعه » . غير ان هذا التهديد ، لم يمنع الملك عبدالله ، ولا وزرائه ، من اهمال هذا المشروع . انهم بعيدون جداً عن فكرة الجامعة ، وحتى عن نصوص دستورها . إن الصلة الوحيدة التي تربط الدول العربية بين بعضها ، هي انكلترا ، لان كل دولة ، ما زالت بحاجة ماسة اليها .

والخلاصة ؛ فان الجامعة العربية ، رغم مظاهرها الصاخبة ، لم تحقق شيئاً يستحق الذكر ؛ وهذا ما جعل سلطتها تتزعزع . ففي قضية فلسطين ، مثلاً ، رأينا الدول العربية ، بعد قرار منظمة الامم المتحدة ، تخاف غضب الدول العظمى ، وتتنازل عن مقرراتها بسهولة . واذا مافكرت الجامعة بان تتحول الى « جامعة اسلامية » فان البلبلة ستظل كما كانت . فاذا انضم اليها مسلمو الهند وافريقيا الشمالية – وطالما شجعتهم على ذلك – فان دائرة اعمالها ستتسع ،

ولا شك ، لكنها ستخسر من القوى ، بمقدار ما ربحت مساحة .
ومما لا شك فيه ، أن انكلترا لم تفكر قط في الجامعة الاسلامية ، حينما خلقت الجامعة العربية . ومع ذلك ، يمكننا ان نتأكد بأن وراء جميع القرارت الصاخبة ، والتظاهرات العيانية (Spectaculaires) ؛ يجري ، بكل روية ، والخفاء ، عمل جدي انهم يتكلمون اليوم عن جميع المعاهدات المعقودة بين انكلترا وكل من الدول العربية ، في معاهدة واحدة ، بين انكلترا والجامعة وسيكون الاعتراف بالاتحاد ، ثمناً لضحايا تقدمها كل دولة ومهما يكن من امر ، فلا يمكننا الا ان نأسف ، لان الجامعة لم تعرف - حتى اليوم - الا ان تكون آلة للدعاية ضد الغرب . فاذا ارادت كما اعلن ممثلو الدول العربية في لندن - « ان تضع اسس منظمة عالمية جديدة » ، فعليها ان تغير اساليبها من الاساس . لقد عرفت ان جميع جهودها ، وتهديداتها ، لم تلاق نجاحاً نسبياً في منظمة الامم المتحدة ، التي كان لموقفها منها ، اثره السريع في جعل الدول العربية تفكر قبل ان تنفذ تهديداتها .

خاتمة

لقد سرنا ، مع الدول العربية ، في صراعها من اجل استقلالها ، وفي تجاربها من اجل الاتحاد . وقد رأينا ، ايضاً كيف ان الدول العظمى ، تدخلت من اجل مصالحها . فكيف يمكن الان ، وعلى ضوء الماضي ، ان نواجه المستقبل ؟

نجد ، من الناحية الداخلية ، ان دور الصراع الاستقلالي ، قد انتقل الى التنظيم السياسي - الاقتصادي ، وبدأت الصعوبات تنفجر من جديد . اذ انه من العسير جداً ، ان يقبل نظام الدول العربية ، تبديلات جوهرية . ففي العربية السعودية ، نجد جميع السلطات في يد واحدة : فابن السعود هو السيد المطلق ، وفي الوقت ذاته ، فهو الرئيس الديني انه آخر مدى في السلطة . اما نظام الحكم في باقي الدول فهو ملكي دستوري كالعراق ومصر ، او جمهوري ، كسوريا ولبنان ، ولكن ليس لهذه الاساليب ، اي نظام ديمقراطي . إن امكانية الوصول الى السلطة ، هي بين ايدي بعض العائلات الاقطاعية . وليس للاحزاب ، حتى الآن ، اي دور

لكنها بدأت تستيقظ وتنتظم. وحتى في اليمن، حيث ظل الامير يحيى ، مدة نصف قرن ، منصرفاً عن جميع الحركات التي تهز العالم ، تمكن حزب ديمقراطي ان يقبض على السلطة . لكن احد ابناء الامير المتوفي ، استعاد السلطة وطبق نظاماً موافقاً لقانون المملكة الاساسي . وفي فلسطين ، فان على الحكومات التي سوف تتعاقب ، بعد التقسيم ، كما قررته منظمة الامم المتحدة ، ان تكون حكومات ديمقراطية ان تطور البلاد العربية ، في اتجاهها نحو الديمقراطية ، قد يكون تطوراً بطيئاً . ولكن يبدو من الصعب وقف تيار الديمقراطية

إن النمو الاقتصادي للدول العربية ، بحاجة الى رؤوس اموال واختصاصيين . فالنفط ذاته — هو النفط الذي يأمل كل بلد ان يجري لمصلحته — هو بحاجة ، قبل ان يملأ خزينة الدولة ، الى استخراج ونقل وتكرير. ولاجل الحصول على الاختصاصيين، ورؤوس الاموال، يجب البحث عنها حيث هي ، اي لدى الدول العظمى . إن صراع هذه الدول من اجل فرض وصاية سياسية ، سوف يتحول ، اذن، الى صراع بارز، من اجل احتلال الاسواق التجارية ، وامتلاك المواد الاولية ، والمشاريع ، والامتيازات . اذ أن من يملك الوسائل الاقتصادية اكثر ، يحصل على نتائج عسكرية مماثلة . وانه من المعروف الان ، ما هي القيمة ، التي تعلق على البلاد العربية ، في حال نشوب حرب ، بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية . ولذا فان الدول العربية ، تجرب ان تظل ، ما امكنها ، بعيدة عن نزاع الدول العظمى .

واخيراً ، فمهما تكن الرغبة قوية، لاتحاد الدول العربية ، فان هذا الاتحاد سيصطدم امام اصحاب المطامع ، بعقبات وخصومات قد لا يكون لها نهاية . واذا سلمنا، منطقياً ، بان بعض التكتلات اقل مساحة ، واكثر تجانساً ، جربت ان تتآلف - كسوريا الكبرى التي تحمل بعض هذه الآمال - فان تكوينها سيصطدم بمعارضة مصر والعربية السعودية ؛ اللتين تخسران كل حظ في لعب الدور الرئيسي، مع العالم العربي . اذن ، فلمن الغلبة ؟ ان المستقبل وحده يعلمنا. على ان الشيء الوحيد ، الممكن اعلانه بكل تواضع هو ان المسألة العربية لم تحل بعد .



للمراسلة :

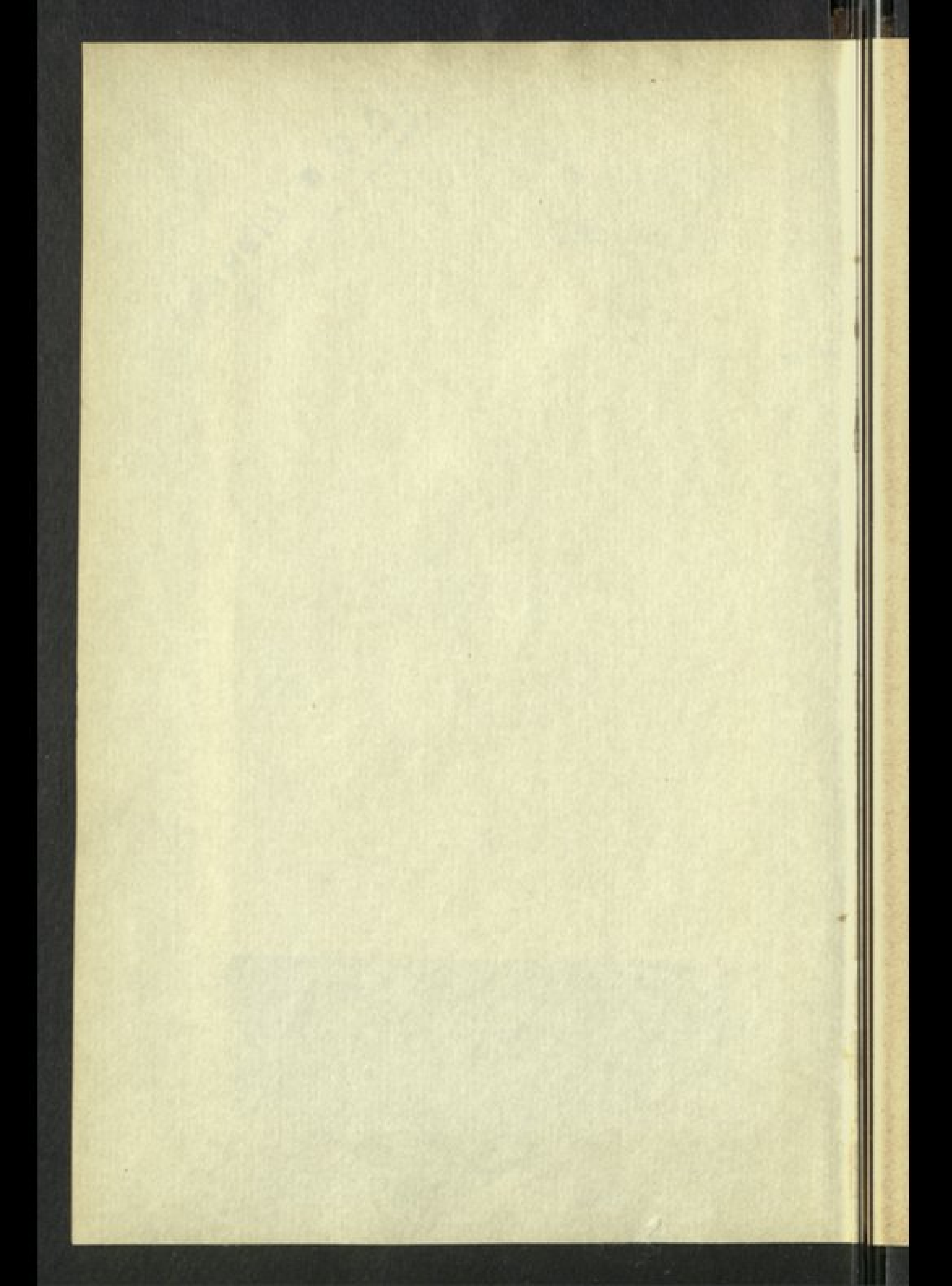
دار مكتبة الحياة ص.ب : ١٣٩٠ ☎ ٣١٩٣٠

باسم صاحبه : **يحيى الخليـــل**

طبع على

مطابع متمنيا - بيروت

كانون ثاني ١٩٥٥



DATE DUE